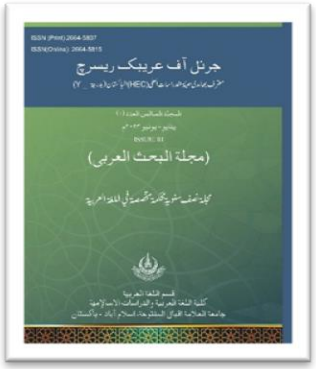

Journal of Arabic Research
EISSN: 2664-5807, pISSN: 2664-5815
Publisher: Allama Iqbal Open University, Islamabad
Journal Website: https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar

Vol.09 Issue: 01 (Jan-June 2026)
Date of Publication: 19-04-2026
HEC Category: Y

https://ojs.aiou.edu.pk/index.php/jar

Article	**صراع الهوية المستلبة: حضور الأندلس في الرحلة العمانية "عين وجناح" لمحمد بن سيف الحارثي** **The Conflict of Alienated Identity: The Presence of Andalusia in the Omani Travel Narrative Ayn wa Janāḥ (Eye and Wing) by Muhammad bin Saif Al-Harthi**
Authors & Affiliations	**Hany Ismaiel Mohammad Abo Retaba** Professor of Modern Literary Criticism College of Arts and Sciences – University of Nizwa
Dates	Received: 03-05-2026 Accepted: 14-05-2026 Published: 19-05-2026
Citation	**صراع الهوية المستلبة: حضور الأندلس في الرحلة العمانية "عين وجناح" لمحمد بن سيف الحارثي** [online] IRI - Islamic Research Index - Allama Iqbal Open University, Islamabad. Available at: <https://jar.aiou.edu.pk/?p=74722> [Accessed June 2026].
Copyright Information	**صراع الهوية المستلبة: حضور الأندلس في الرحلة العمانية "عين وجناح" لمحمد بن سيف الحارثي** **2026@ by Hany Ismaiel Mohammad Abo Retaba** , is licensed under Attribution-Share Alike 4.0 International
Publisher Information	Department of Arabic, Faculty of Arabic & Islamic Studies, Allama Iqbal Open University, Islamabad

Indexing & Abstracting Agencies

IRI	Australian Islamic Library	HJRS	DRJI

ABSTRACT

This study uncovers the image of alienated identity in Omani writer Muhammad bin Saif al-Harithi's journey to Andalusia, recorded in his book "Ayn wa-Janah" (Eye and Wing). It starts from a central problem: how is alienated identity shaped in the encounter with the Western Other and the Arab self alike, and what patterns does it assume? The study holds that alienation is not confined to the defeated alone but extends to the victor too, whenever he fails to genuinely belong to what he inherited or built. It adopts a critical-analytical method, drawing on postcolonial concepts established by Frantz Fanon and Gayatri Spivak, the concept of the "victorious subaltern" developed by the study to trace the alienation shared by the defeated and the victor, and Jacques Lacan's "mirror stage" theory, used to analyze the defenses of the "fractured subaltern." The study moves through eight sections: from the alienation of transient identities and identity disturbance, to the distortion of heritage by the "victorious subaltern," the erasure of identity under capitalism, myth as a tool to justify incapacity, rebellion against self-identity, the fractured subaltern's discomfort at seeing his image reflected in a similar Other, and finally "alienated victory," where alienation extends to history itself. The study concludes that alienation is a deep, entrenched structure affecting the defeated and the victor alike; that nostalgia, myth, distortion, and the theft of history deepen alienation rather than resolve it; and that travel narrative traces identity conflict with exceptional depth, placing the self in direct confrontation with the Other, history, and place at once.

Keywords: Alienated Identity, Travel Literature, Postcolonial Criticism, Fractured Subaltern, Lacan's Mirror Stage.

مستخلص البحث

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن صورة الهوية المستلَبة في رحلة الكاتب العُماني محمد بن سيف الحارثي إلى الأندلس، المدوَّنة في كتابه "عين وجناح"، انطلاقاً من إشكالية مركزية مفادها: كيف تتشكّل صورة هذه الهوية المستلَبة في مواجهة الآخر الغربي ومواجهة الذات العربية معاً؟ وما الأنماط والمستويات التي يتّخذها هذا الاستلاب؟ وينطلق البحث من فرضية مفادها أن الاستلاب لا يقتصر على المهزوم وحده، بل يطال المنتصر أيضاً حين يعجز عن الانتماء الحقيقي لما ورثه أو لما بناه. اعتمد البحث المنهج النقدي التحليلي مستعيناً بمفاهيم نقد الخطاب ما بعد الاستعماري كما أسّس لها فرانتز فانون في "معذبو الأرض" و"بشرة سوداء وأقنعة بيضاء"، وغاياتري سبيفاك في مقالتها "هل يتكلّم التابع؟"، إلى جانب مفهوم "التابع المنتصر" الذي وظّفه البحث لرصد الاستلاب المتبادل بين المهزوم والمنتصر، ونظرية جاك لاكان في "مرحلة المرآة" لتحليل آليات الدفاع النفسي لدى "التابع المشقَّق". تدرّج البحث عبر ثمانية مباحث متسلسلة: من استلاب الهويات العابرة واضطراب الهوية، إلى صراع الهوية وتشويه التراث لدى "التابع المنتصر"، فطمس الهوية بفعل الرأسمالية المتوحشة وإرث الحروب الكبرى، فتوظيف الخرافة أداةً لتبرير العجز، فالتمرد على الهوية الذاتية، فانزعاج "التابع المشقَّق" من انعكاس صورته في مرآة الآخر المشابه له، وانتهاءً بـ"الانتصار المستلَب" حين يمتد الاستلاب ليطال التاريخ ذاته وإنجازاته. وخلص البحث إلى أن الاستلاب بنية عميقة متجذرة تطال المهزوم والمنتصر معاً على مستويات فردية وجمعية وتاريخية وراهنة متشابكة، وأن النوستالجيا والخرافة والتشويه وسرقة التاريخ آليات دفاعية تُعمّق الاستلاب ولا تعالجه، وأن الرحلة الأدبية قادرة على رصد صراع الهويات بعمق استثنائي؛ لأنها تضع الذات في مواجهة مباشرة مع الآخر والتاريخ والمكان في آنٍ واحد، فتكشف ما تُخفيه الخطابات الرسمية والروايات الجمعية.

الكلمات المفتاحية: الهوية المستلَبة، أدب الرحلة، نقد ما بعد الاستعمار، التابع المُشقَّق، مرحلة المرآة (لاكان).

المقدمة

يُعدُّ أدبُ الرحلةِ من أكثرِ الأجناسِ الأدبيةِ قدرةً على رصدِ صراعاتِ الهويةِ وتجلّياتِها؛ إذ يضعُ الذاتَ الكاتبةَ في مواجهةٍ مباشرةٍ مع الآخرِ والمكانِ والتاريخِ في آنٍ واحد، فتنكشفُ من خلالِهِ طبقاتُ الوعيِ العميقةِ التي تُغطّيها الخطاباتُ الرسميةُ وتُخفيها الرواياتُ الجمعية. ولعلَّ رحلةَ الكاتبِ العُمانيّ محمد بن سيف الحارثي إلى الأندلسِ — المدوَّنةَ في كتابِهِ "عينٌ وجناح" — من أبرزِ النماذجِ الرحليةِ العربيةِ المعاصرةِ التي تتجاوزُ حدودَ التوثيقِ الجغرافيّ والتاريخيّ لتغوصَ في أعماقِ الأزمةِ الهوياتيةِ العربيةِ بكلِّ تعقيداتِها وتناقضاتِها.

تنبثقُ أهميةُ هذا البحثِ من ثلاثةِ محاورَ رئيسية: أمَّا المحورُ الأوَّلُ فيتمثَّلُ في أهميةِ الرحلةِ العُمانيةِ بوصفِها نصَّاً أدبيَّاً يُجسّدُ صراعَ الهويةِ العربيةِ المعاصرةِ بعمقٍ نقديٍّ نادر؛ إذ لا يكتفي الحارثيُّ بوصفِ الأندلسِ بوصفِها مكاناً جغرافيَّاً أو إرثاً تاريخياً، بل يتَّخذُها مرآةً كاشفةً لأزمةِ الهويةِ العربيةِ في راهنِها

الإنساني. وأمَّا المحورُ الثاني فيتمثَّلُ في شُحِّ الدراساتِ الأكاديميةِ التي تناولَت الرحلةَ العُمانيةَ من منظورِ نقدِ الهويةِ والخطابِ ما بعدَ الاستعماري؛ إذ تنصبُّ معظمُ الدراساتِ المتاحةِ على الوصفِ والتوثيقِ دونَ التحليلِ النقديِّ العميق. وأمَّا المحورُ الثالثُ فيتمثَّلُ في الأهميةِ المنهجيةِ لتطبيقِ مفاهيمِ نقدِ الخطابِ ما بعدَ الاستعماريِّ على نصٍّ خليجيٍّ عُمانيٍّ أصيل؛ مما يُسهمُ في إثراءِ المكتبةِ النقديةِ العربيةِ بدراسةٍ تجمعُ بينَ خصوصيةِ النصِّ العُمانيِّ وشموليةِ المنهجِ النقدي.

تنطلقُ هذه الدراسةُ من إشكاليةٍ محوريةٍ تتمثَّلُ في السؤالِ الآتي: كيفَ تتشكَّلُ صورةُ الهويةِ المستلَبةِ في رحلةِ الحارثي إلى الأندلس، وما الأنماطُ والمستوياتُ التي يتَّخذُها هذا الاستلابُ في مواجهةِ الآخرِ الغربيِّ ومواجهةِ الذاتِ العربيةِ معاً؟ وتتفرَّعُ من هذه الإشكاليةِ الرئيسيةِ جملةٌ من التساؤلاتِ الفرعية:

- هل يقتصرُ الاستلابُ على المهزومِ العربي، أم يطالُ المنتصرَ القشتاليَّ كذلك؟
- كيفَ يتحوَّلُ العجزُ من موقفٍ ظرفيٍّ إلى بنيةٍ ذهنيةٍ راسخة؟
- ما العلاقةُ بينَ الاستلابِ الخارجيِّ والاضطرابِ الداخلي في تشكيلِ الهويةِ المستلَبة؟
- كيفَ يُوظِّفُ الرحَّالةُ الأندلسَ فضاءً لاستعادةِ الهويةِ أو كشفِ استلابِها؟

يسعى هذا البحثُ إلى تحقيقِ جملةٍ من الأهدافِ المترابطة:

- رصدُ أنماطِ الهويةِ المستلَبةِ وتصنيفُها في رحلةِ الحارثي وفقَ مستوياتِها المتعدِّدة.
- الكشفُ عن البنيةِ العميقةِ للاستلابِ وآلياتِ اشتغالِهِ في النصِّ الرحلي.
- إثباتُ أنَّ الاستلابَ ظاهرةٌ تطالُ المهزومَ والمنتصرَ معاً، وأنَّ التاريخَ والراهنَ كلَيهِما ساحةٌ لصراعِ الهويات.
- الإسهامُ في الدراساتِ النقديةِ للرحلةِ العُمانيةِ من منظورٍ ما بعدَ استعماري.

اعتمدَ هذا البحثُ المنهجَ النقديَّ التحليليَّ مُستعيناً بمفاهيمِ نقدِ الخطابِ ما بعدَ الاستعماريِّ كما أسَّسَ لها فرانتز فانون في "معذَّبو الأرض" و"بشرةٌ سوداءُ وأقنعةٌ بيضاء"، وغاياتري سبيفاك في مقالتِها الشهيرةِ "هل يتكلَّمُ التابع؟"، فضلاً عن مفهومِ "التابعِ المنتصر" الذي وظَّفَهُ البحثُ لرصدِ حالةِ الاستلابِ المتبادَلِ بينَ المهزومِ والمنتصر. كما استعانَ البحثُ بالمنهجِ النفسيِّ النقديِّ في تحليلِ آلياتِ الدفاعِ عن الهويةِ لدى التابعِ المشقَّق، والمنهجِ الدلاليِّ في تحليلِ الرموزِ والاستعاراتِ الهوياتيةِ في النص.

يقتصرُ هذا البحثُ على دراسةِ صورةِ الهويةِ المستلَبةِ في كتابِ "عينٌ وجناح" للحارثي، مُتتبِّعاً المقاطعَ والمشاهدَ المتعلِّقةَ بالأندلسِ وما يُحيطُ بها من سياقاتٍ هوياتيةٍ وتاريخيةٍ وحضارية، دونَ التوسُّعِ في سائرِ محطاتِ الرحلةِ التي لا تتَّصلُ بمحورِ البحثِ الرئيسي.

الدراساتُ السابقة:

تُعدُّ الدراساتُ المتعلّقةُ بالرحلةِ العُمانيةِ من منظورِ نقدِ الهويةِ شحيحةً نسبياً في المكتبةِ النقديةِ العربية؛ إذ انصرفَ معظمُ الباحثينَ إلى الرحلاتِ المشرقيةِ والمغربيةِ، فيما ظلَّت الرحلةُ الخليجيةُ عموماً والعُمانيةُ خصوصاً في هامشِ الدرسِ النقدي. وقد تناولَ بعضُ الباحثينَ كتابَ "عينٌ وجناح" من زوايا جماليةٍ ووصفية، لكنَّ الدراسةَ المنهجيةَ المعمَّقةَ لأنماطِ الهويةِ المستلَبةِ فيه تبقى مجالاً بِكراً لم يُستكشَف بما يكفي؛ وهو ما جاءَ هذا البحثُ ليسدَّ ثغرتَهُ ويُعالجَ نقصَه.

جاءَ هذا البحثُ مقسَّماً على ثمانيةِ مباحثَ متسلسلةٍ تتدرَّجُ من الاستلابِ الخارجيّ المباشرِ إلى الاستلابِ الداخليّ العميق، ومن الأثرِ الفرديّ إلى البُعدِ التاريخيّ الشامل؛ إذ يرصدُ المبحثُ الأوَّلُ الاستلابَ الخارجيَّ في مواجهةِ الآخرِ الغربي، ويتناولُ الثاني اضطرابَ الهويةِ على مستوياتِهِ الثلاثة، ويرصدُ الثالثُ صراعَ الهويةِ وتشويهَ التراثِ لدى التابعِ المنتصر، ويكشفُ الرابعُ عن دورِ الرأسماليةِ في طمسِ الهوية، ويتناولُ الخامسُ توظيفَ الخرافةِ أداةً للهروبِ من العجز، ويغوصُ السادسُ في أعماقِ التمرُّدِ على الهويةِ الذاتية، ويرصدُ السابعُ انزعاجَ التابعِ المشقَّقِ من صورتِهِ في مرآةِ الآخر، وينتهي الثامنُ بكشفِ الاستلابِ في أبعادِهِ التاريخيةِ الكبرى حينَ يطالُ الانتصاراتِ ذاتَها. وتأتي الخاتمةُ لتستجمعَ خيوطَ البحثِ وتُقدِّمَ نتائجَهُ واستنتاجاتِهِ الكبرى.

1

استلابُ الهوياتِ العابرة

تبدأ رحلةُ العبورِ الثانية، أو بمعنى أدقَّ محاولةُ العبورِ الثانية؛ إذ كانت زيارةً محفوفةً بالمخاطر والعنف، فرغم كونها زيارةً لا هجرةً، وسياحةً لا غزوةً، فإنَّ العنفَ صاحبَها؛ فوقعَ العربيُّ صاحبُ الهويةِ المستلَبة في مصيدةِ العنف: "ضربة في مؤخرة الرأس بهراوة البوليس لم أحسب لها حسابًا جعلتني أستدير للخلف لتلقي الضربة الثانية على الجبهة"[(1)].

غلبتِ المثاليةُ أو الرومانسيةُ التاريخيةُ رؤيةَ الرحَّالة، فخلقَت شعوراً غيرَ واقعيٍّ اصطدمَ بالواقع، واقعِ الحضارةِ الحديثة، حضارةِ الغربِ الرأسماليةِ التي تُقيِّم كلَّ شيءٍ وفقَ رؤيةٍ ماديةٍ قوامُها الربحُ والخسارة، فهي لا تعرفُ التاريخَ ولا القيم، ولا تعترفُ إلا برؤيتِها في تقسيمِ الأممِ والمجتمعات. وكان من حظِّ الرحَّالة أنه وقعَ في دائرةِ ما يُسمَّى بالعالمِ الثالث، أو العالمِ الخطِر في المنظورِ الغربي، ذلك العالمِ الذي يُصوَّر على أنه يريدُ القضاءَ على الحضارةِ الغربيةِ بدمويتِه وجهله؛ فقرَّروا أن يتعاملوا معه ومع سائرِ العربِ بالقسوةِ والعنفِ المناسبَين لـ"ثقافتِه" المتوهَّمة: "قبل أن أُقذَف بركلة من جزمة العسكري إلى غرفة الموقوفين، الغرفة الضيقة التي سبقني إليها ستة مغاربة حاولوا التسلل إلى إسبانيا بتأشيرات مزوّرة في الدار البيضاء" [(2)]. وهذه الغرفةُ الضيقةُ

[1](الحارثي، 2023، ص. 150)
[2](الحارثي، 2023، ص. 150)

المظلمةُ ليست مجردَ مكانِ احتجاز، بل هي استعارةٌ دالَّةٌ على الفوارقِ الحضاريةِ بين العالمين الشرقيِّ والغربيِّ في المنظورِ الغربيِّ.

ترسمُ رحلةُ الحارثي صراعَ الهوياتِ في العالمِ المعاصر؛ إذ تتوارى الإنسانيةُ أمامَ البروتوكولِ الدبلوماسي، أو ربما أمامَ مصالحِ الدولِ وعلاقاتها، فتضيعُ الهويةُ الإنسانيةُ الفردية. فقد أغفلَ هذا البروتوكولُ الجانبَ الإنسانيَّ تماماً، واكتفى برعايةِ المصالحِ دونَ اعتبارٍ بالنفسِ البشرية؛ فجاءَ الاعتذارُ موجَّهاً إلى القنصلِ أو السفارة، ناسينَ أو متناسين، أو ربما شاعرينَ بأنَّ الفردَ/المواطنَ في بلاد الهوياتِ المستلَبة لا حقَّ له في هذا الاعتذار. لقد فقدَ الفردُ هويتَه ووجودَه الإنسانيَّ أمامَ آلياتِ البروتوكولِ الجامدة.

وهذه هي صورةُ الهويةِ المستلَبة في أجلى تجلياتها: غيابُ الرؤيةِ وهدرُ الوجود، وكأنَّنا لا نُرى؛ فالعالمُ من حولِنا قد أسقطَنا من حساباته، ولم يعُد يُبصرُنا أفراداً أو دولاً أو حضارة؛ لأنَّنا قد هُزمنا وجرى استلابُ هويتِنا في أتونِ محرقةِ العالمِ المعاصر، وفي علاقاتِ المصالحِ والرأسماليةِ المتوحِّشة التي لا تُبصرُ الإنسانَ أصلاً، لا سيَّما المستلَبين منهم.

ويزيدُ الأمرَ تعقيداً أنَّ موقفَ السفارةِ العُمانيةِ من الرحَّالة يكشفُ أنَّ الدولَ العربيةَ ذاتَها تُسهمُ في استلابِ مواطنيها، وتُعلِّمُهم أن يكونوا مُستلَبين أمامَ أنفسِهم وأمامَ الآخر. فالرحَّالةُ محاصَرٌ من طرفَين كلاهما يستلبُه بطريقتِه الخاصة، غيرَ أنَّ الاستلابَ الأشدَّ وطأةً والأعمقَ أثراً هو دائماً ذلك القادمُ من الوطن، الذي يمحو الفرديةَ ويُذيبُها في الصورةِ الذهنيةِ العامةِ للدول.

ومن ثَمَّ تتراجعُ صورةُ المهزومِ وصاحبِ الهويةِ المستلَبة، ويغدو موضعَ شكٍّ دائم، فصورتُه باهتةٌ ووجودُه مُلتبَس، ويقعُ فريسةً للاتهام: "ولأنهم، حسب الرد الدبلوماسي المفتقر لأدنى درجات التهذيب، لا يعترفون ضمنياً بإمكانية دخولي المغرب مرة أخرى، فقد كان الرد بالرفض قاطعاً، رغم أن جواز سفري به خمس تأشيرات قديمة إلى بريطانيا، وتأشيرتان إحداهما سارية المفعول إلى فرنسا" ([3]). يتناوبُ الحصارُ عليه؛ فبينما يستلبُه وطنُه، يلتفتُ للبحثِ عن اعترافِ الآخر، الآخرِ المستعمِر الذي استلبَه قديماً وحديثاً. لقد فقدَ الثقةَ بذاتِه وثقافتِه ووطنِه، فسعى إلى توثيقِ وجودِه وإنسانيتِه بشهادةِ الغرب، وكأنه يقول: "أنا لستُ خطراً؛ لأنَّ الآخرَ الغربيَّ قال ذلك". هنا يحضرُ الاستلابُ في أعمقِ صورِه وأكثرِها مأساويةً، ولم يكن بفعلِ هراوةِ الشرطيِّ الإسبانيِّ وحسب، بل حضرَ بيدِ الرحَّالة نفسِه حين راحَ يستجدي الاعترافَ به من الآخر؛ فشرعيتُه لم تعُد مُستمدَّةً من وجودِه وفعلِه، بل من تصديقِ الآخرين له. لقد تماهى مع القوى المستلِبة بوصفِها مخرجاً وهمياً يُنجيه من الاعتداءِ المعنويِّ والمادي، لكنه أخفقَ في ذلك أيضاً.

وتبدو النوستالجيا في هذا السياقِ استراتيجيةً دفاعيةً لدى المستلَبين؛ إذ يغدو الماضي ملجأً قوياً يهرولُ إليه الإنسانُ حين يعجزُ الحاضرُ عن منحِه القوةَ والقدرةَ على الفعل. وعليه، تتحولُ الرحلةُ إلى محاولةٍ للانتصارِ للذاتِ عبرَ التناصِّ مع التاريخ، تأكيداً على أنَّ فتحَ الأندلسِ كان رحلةَ عبورٍ حضاريٍّ إلى الضفةِ

---

[3](الحارثي، 2023، ص. 151)

الأخرى؛ فلم يكن العربيُّ الذي اجتازَ المضيقَ غازياً، بل كان مُهاجراً حضارياً استوطنَ الأندلسَ وتعايشَ مع أهلِها، وانصهروا جميعاً في نسيجٍ إنسانيٍّ متميّزٍ أنتجَ حضارةً زاهيةً أشعلَت نورَ المعرفةِ في ربوعِ أوروبا.

هكذا كانت رحلةُ العبورِ الأولى كما فهمَها المؤلفُ من قراءتِه للمخطوطِ القرمزيّ لأنطون جالا([4]).

وبتعانقٍ روحانيٍّ تمنَّى أن تكونَ رحلتُه إلى الأندلسِ مماثلةً لتلك الرحلةِ الأولى: عبوراً واستيطاناً وتعانقاً وامتزاجاً حضارياً عميقاً بين العربيّ القادمِ من الشرقِ وأرضِ الأجدادِ في الغرب. لكنه أخفقَ في ذلك، فسعى إلى الآخرِ كي يمنحَ تاريخَه نوعًا من العظمةِ والتفوق، مُستشهِدًا بأنطون جالا في المخطوطِ القرمزي: "هنا في قرطبة لم يدخل العرب، كما لم يدخلوا أي مكان من شبه الجزيرة على جيادهم، وإنما سيرًا على الأقدام واحدًا واحدًا، أريد أن أقول إن العرب لم يغزوا شبه الجزيرة عسكرياً إطلاقاً، كما جعلنا نعتقد مؤرخو هذا الجانب أو ذاك".([5]) إنَّ الرحَّالةَ العربيَّ يخاطبُ نفسَه والقارئَ العربيَّ معاً في لحظةِ عجزٍ تام: عجزٌ عن تأكيدِ إنسانيتِه للشرطيِّ الإسباني، وعجزٌ للحاضرِ عن القدرةِ والفعل؛ فلاذَ بالتاريخِ مُدافِعاً عن وجودِه حاضرًا وماضيًا. لكنَّ ملاذَه التاريخيَّ جاءَ على لسانِ الآخرِ لا على لسانِه؛ فنحن أمامَ صورةِ عجزٍ مُضاعَف: عجزُ الماضي وعجزُ الحاضرِ معًا. وهكذا تبرزُ صورةُ الاستلابِ الزمنيِّ في أوضحِ تجلياتِها؛ فقد ضاعَ الحاضر، فهرولَ الرحَّالةُ إلى الماضي بصورةٍ غيرِ موضوعيةٍ وغيرِ تاريخية، إذ لم يكن استحضارُه للتاريخِ نابعًا من وعيٍ نقدي، بل كان تعبيرًا عن حاجةٍ نفسيةٍ وإنسانيةٍ مُلحَّةٍ في لحظتِه الراهنة.

2

اضطرابُ الهويَّة

وقفَ الرحَّالةُ مُتأمِّلاً حالَهُ وهويَّتَه، فهو يقفُ في وطنِهِ الذي لم يعُد وطنَه، وثقافتِهِ التي لم تعُد ثقافتَه، وتاريخِهِ الذي جرى حجبُهُ عن عمد. عانى العربيُّ في إسبانيا من غيابِ هويَّتِهِ مع رحيلِ روحِهِ من تلك الأرض، ووقفَ الإسبانيُّ حائراً بين هويَّتِهِ وتراثِهِ الذي يراهُ كلَّ يومٍ في حياتِهِ ورحلاتِهِ ولغتِه، وبين حاضرِهِ وواقعِهِ الذي سيطرَت عليه رغبةُ الانتزاعِ من الجذور؛ فكانَت نتيجةُ تلك المحاولاتِ الاستلابَ، استلابَ الهويَّةِ الذي أنتجَ اضطرابَها. فمع ذلك الانتزاعِ والرأسماليةِ المتوحّشة، ونتائجِ الحروبِ الكبرى التي دفعَت السلوكَ الإنسانيَّ إلى الانحلال، باتَت قِيَمُ الانحرافاتِ واضحةً في الهوياتِ المستلَبة، وكانَت الهويةُ الإسبانيةُ إحدى تلك الهوياتِ التي عانَت من الاضطراب.

برزَ الجسدُ في هذه الحالةِ بوصفِهِ موضعَ الاستلابِ الماديِّ الواضح؛ فالجسدُ هو الصورةُ الأولى التي ترتسمُ فيها ملامحُ الهويَّةِ حضورًا أو غيابًا. لذلك كانَ الجسدُ حاضرًا في رحلةِ الحارثي منذُ اللحظةِ الأولى؛

---

[4] (غالا، 1998). يتبنى غالا في روايته طرحاً فكرياً مفاده أن دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الإيبيرية لم يكن مجرد اجتياح عسكري أو غزو خارجي مدمر، بل إن السكان المحليين تفاعلوا بشكل إيجابي وسريع مع الفاتحين، واعتنق كثيرٌ منهم الإسلام طواعية واحتضنوا الثقافة الجديدة لما حملته من مظاهر حضارية متقدمة مقارنةً بالوضع السائد تحت حكم القوط. كما يفرّق غالا في فلسفة روايته بين "العرب" كعرقٍ وبين "الأندلسيين" كأمةٍ وثقافة؛ إذ يرى أن الأندلسيين نسيجٌ فريد تشكّل على أرض إيبيريا، وقد جاء على لسان إحدى شخصياته: "نحن أندلسيون، ولسنا عرباً فقط"، مشيراً إلى أن الإسلام والثقافة العربية صهرا المكونات المحلية لينتجا هوية أندلسية مستقلة ومتجذرة في الأرض.

[5] (الحارثي، 2023، ص. 149؛ نقلاً عن غالا، 1998)

فالاعتداءُ الذي وقعَ عليه، من الضربةِ الأولى على مؤخرةِ الرأسِ الناطقةِ بحجبِ الرؤيةِ وقتلِ الشعورِ بالأمان، ثم ضربةِ الجبهةِ التي تُمثِّلُ العجزَ عن المواجهة، كأنَّ سلطةَ القهرِ والإكراهِ تُجبرُ الإنسانَ على الاستسلامِ التام: لا رؤيةَ ولا مواجهة.

يُمثِّلُ الجسدُ في رحلةِ الحارثي رمزاً مادياً لاستلابِ الهويَّة، بدايةً من الضربِ الذي تعرَّضَ له، إلى لحظةِ التكثيفِ الدلاليّ للاستلابِ والاضطراب؛ تلك اللحظةُ التي يتجسَّدُ فيها حضورُ روبرتو، إذ تعكسُ كلَّ صورِ الاضطرابِ وغيابِ الهويَّةِ في جسدٍ واحد. فلم تكن هويةُ العربيّ وحدَها هي التي طُمِست، بل طُمِسَت معها هويةُ مدينةِ مالقةَ الإسبانيةِ باضطرابِ هويَّتِها أيضاً. ففي رحلةِ بحثِ الرحَّالةِ العربيّ عن مكانٍ يبيتُ فيه، التقى الشابَّ الإسبانيَّ روبرتو ابنَ السابعةَ عشرة، الذي طلبَ من العربيّ أن يُضاجعَهُ مُضاجعةَ النساء: "فأطلَّ شابٌّ في حوالي السابعةِ عشرةَ من عمره، راودَني عن نفسِهِ قبلَ مُساومتِهِ على ثمنِ الغرفة".[6] لكنَّ العربيَّ رفضَ الانغماسَ أكثرَ في غيابِ الهوية، فعاقبَهُ الإسبانيُّ بتسكينِهِ في غرفةٍ ضيقةٍ تعكسُ ضيقَ الحياةِ وندرةَ النجاحِ من حولِهما: "كنتُ النزيلَ الوحيدَ على ما يبدو، ومع ذلك أعطاني غرفةً صغيرة".[7] ولم يكن اختيارُ الشابِّ الإسبانيّ للعربيّ مُصادفة، بل كان نتيجةَ إحساسِهِ بأنَّ العربيَّ يرزحُ تحتَ وطأةِ الاستلابِ واضطرابِ الهويَّةِ التي يُعانيها هو نفسُه؛ فظنَّ أنه سيُبادلُهُ انحرافَ الفطرةِ واضطرابَ الهويَّةِ الذكورية، لكنه صُدِمَ بالرفض. كانَت هذه المحاولةُ كشفًا عن مأزقِهِ النفسيّ وتناقضِ هويَّتِهِ الداخلية؛ فكانَ يبحثُ عن شبيهٍ له يُؤيِّدُهُ فيما يفعل، فجاءَ الرفضُ صدمةً مُضاعَفة.

وتأتي اللحظةُ الأكثرُ تناقضاً لتكشفَ واقعَ الهويَّةِ المضطربةِ بدقَّة: "في طريقِ عودتِنا... روبرتو، روبرتو! صاحَت إحدى الفتياتِ الواقفاتِ في الرصيفِ المقابل... في الطريقِ قالَ لي: هل تظنُّ أنَّ هاتَين فتاتان؟ قلتُ نعم، أجابَني: هاتانِ رجلتانِ من أولئك الذين بلغَ بهم الشذوذُ حدودَهُ القُصوى".[8] أرادَ الشابُّ المضطربُ أن يُؤكِّدَ لنفسِهِ وللرحَّالةِ أنه لا ينتمي لهذا العالمِ الذي وصفَهُ بالشذوذ، وكأنه يتبرَّأُ منه. يقودُنا النصُّ هنا إلى حالةٍ من أشدِّ أنواعِ الاضطرابِ وطأة؛ إذ يعكسُ الاضطرابُ حالةَ التناقضِ الداخليّ التي يُعانيها المضطرِب، فروبرتو يتبرَّأُ أمامَ الرحَّالةِ من فعلٍ سبقَ وطلبَهُ منه، بل يُصنِّفُهُ ويصفُهُ بالشذوذ. لقد لجأَ الشابُّ إلى ميكانيزمِ الدفاعِ عن الهويَّة، كاشفًا عن تشظِّيهِ ووقوعِهِ بين ما يشتهيهِ وما يرفضُهُ مجتمعُهُ ودينُه، بل إنَّ ذاتَهُ العميقةَ هي كذلك ترفضُه.

يكشفُ لنا النصُّ أنَّ الرحَّالةَ وروبرتو هما مرآةٌ واحدةٌ لهويَّةٍ مُضطربة، تعيشُ في ظلِّ ثلاثةِ مستوياتٍ متشابكة:

---

[6] (الحارثي، 2023، ص. 154)
[7] (الحارثي، 2023، ص. 154)
[8] (الحارثي، 2023، ص. 157)

المستوى الأول: الهويَّةُ القوميَّةُ والجنسية: يفقدُ الرحَّالةُ هويَّتَهُ القوميَّة، فلا يستطيعُ أن يُواجهَ المعتديَ عليه بهويَّتِه، بل يلجأُ إلى استجداءِ اعترافِ الآخرِ به. وروبرتو يُعاني من اضطرابِ الهويَّةِ الجنسية؛ فيبرزُ التناقضُ داخله: يشتهي ويرفض، يعرضُ ويتبرَّأ.

المستوى الثاني: الهويَّةُ الحضارية: يعجزُ الرحَّالةُ عن الإفصاحِ بأنَّ هذه الدولةَ التي يزورُها هي بلدُهُ القديم، وأنَّ أجدادَهُ هم من بنَوا تاريخَها المجيد. كما يعجزُ روبرتو عن فهمِ هويَّتِهِ المركَّبةِ بين أصولٍ عربيةٍ وواقعٍ إسباني؛ فيقعُ في فخِّ الاضطراب.

المستوى الثالث: الهويَّةُ الأخلاقية: كلٌّ من الرحَّالةِ وروبرتو يمتلكُ وعيًا أخلاقيًا يُصنِّفُ به الآخرين، لكنه لا يملكُ الشجاعةَ الكافيةَ لمواجهةِ ذاتِهِ والإعلانِ عن هويَّتِهِ الحقيقية.

والخلاصةُ أنَّنا أمامَ صورةٍ واحدةٍ مُركَّبةٍ لنموذجِ اضطرابِ الهويَّة؛ فالرحَّالةُ العربيُّ يُعاني من هويَّةٍ مُستلَبةٍ من الخارجِ بفعلِ الآخرِ الغربيّ الذي لا يراه، ومن الداخلِ بفعلِ دولتِهِ التي لا تحميه. وروبرتو من الخارجِ يرسمُ لنفسِهِ صورةً مغايرةً لما يشعرُ به في حقيقتِه، فهو لا يرى نفسَهُ على حقيقتِها، ومن الداخلِ لا يفهمُ ما يُعانيهِ ولا يستطيعُ التصالحَ معه. فكلاهما يقفُ أمامَ مالقةَ المدينةِ الحضاريةِ عاجزاً عن استيعابِ ما تعنيه؛ الرحَّالةُ يبحثُ عن ماضٍ لا يجده، وروبرتو يهربُ من حاضرٍ لا يقبله، وفي كلتا الحالتَين تبقى الهويَّةُ المضطربةُ هي الجامعَ المشتركَ بينَ ضفَّتَي المتوسّط.

3

صراعُ الهويَّةِ وتشويهُ التراثِ "التابعُ المنتصر"

انتصرَ القشتاليُّ في نهايةِ المطافِ على المسلمِ الذي سكنَ الأندلسَ وأقامَ فيها حضارةً لا تزالُ شواهدُها حاضرةً بقوَّة، رغمَ الأفولِ ورحيلِ صانعيها. بقيَت الآثارُ تُؤرِّقُ المنتصرَ الذي وقعَ فريسةً للصراع، صراعِ الهويَّة: هل هو ينتمي إلى هذه الحضارة؟ أم أنه الأوروبيُّ الذي طردَ العربيَّ المسلمَ من أرضِه؟ بينَ هاتَين الرؤيتَين وقعَ المنتصرُ فريسةً للغيابِ والتبعية، والصراعِ بينَ الماضي الذي يهمُّ بالرحيلِ والحاضرِ الذي لم يستطع أن ينتميَ إليه بصدق؛ فأصابَهُ العجز، فلم يجرؤ على تحويلِ الآثارِ العربيةِ وتدميرِها، ولم يستطع أن يُبقيَها كما هي ويُعلنَ انتماءَهُ إليها؛ فعمدَ إلى التشويه، أو الوقوفِ في منطقةٍ رماديةٍ تزيدُ هويَّتَهُ تعقيدًا ولا تنتشلُهُ من براثنِ الصراعِ الهوياتي.

ولا بدَّ هنا من الوقوفِ عندَ مفهومِ "التابعِ المنتصر" الذي يُمثِّلُ المحورَ الأساسيَّ لهذا المبحث، وهو مفهومٌ يتقاطعُ مع ما سبقَ تناولُهُ من صورِ الاستلابِ واضطرابِ الهويَّة؛ إذ يُشيرُ إلى تلك الحالةِ المفارِقةِ التي يغدو فيها المنتصرُ عسكريًا وسياسيًا تابعًا حضاريًا وثقافيًا للمهزوم، عاجزًا عن الانفكاكِ من هيمنةِ الإرثِ الذي ورثَهُ قسرًا، والتحرُّرِ من أسرِ الحضارةِ التي أرادَ القضاءَ عليها فقضَت هي عليه من الداخل. وهذا النموذجُ هو الوجهُ الآخرُ لصورِ الاستلابِ التي رصدَها الرحَّالةُ في رحلتِه؛ فإن كانَ العربيُّ يُعاني من استلابِ هويَّتِهِ بفعلِ الخارج، فإنَّ القشتاليَّ يُعاني من استلابٍ من نوعٍ مختلف: استلابٌ فرضَهُ عليه ماضٍ لا يستطيعُ الفكاكَ منه.

في ظلِّ صراعِ الهوياتِ والهزائمِ التي تلحقُ بأصحابِها تغيبُ الحكمةُ وينطفئُ الجمال؛ فكلُّ هويَّةٍ مُستلَبةٍ تسعى إلى طمسِ الهويَّةِ الأخرى لتأكيدِ تفوُّقِها المؤقَّت. وتُمثِّلُ الآثارُ والشواهدُ العظيمةُ خطراً يُؤرِّقُها؛ فتسعى إلى طمسِها أو تغييرِ معالِمِها؛ لتُناسبَ الهويَّةَ المستلَبةَ الجديدة. وهذا ما سعى إلى خلقِهِ القشتاليُّ المنتصرُ الذي ظلَّ خائفًا من العربيِّ المهزوم؛ فشوَّهَ بيدَيهِ تراثَ أجدادِهِ أو الساكنينَ في هذا الوطنِ قبله: "خلفَ هذه العظمةِ ينتصبُ نصبُ شارل الخامس الضخمُ الذي وُضِعَ هنا، كما قيلَ لنا، لكي يخسفَ ذكرى ملوكِ العرب".[9] كانَ القشتاليُّ المنتصرُ التابعُ تُمِمُّهُ الصورةُ السطحيةُ بسببِ عجزِهِ عن الانتماءِ الحقيقيِّ للحاضرِ والماضي معاً؛ فكانَت الصورةُ الأوروبيةُ التي تُمثِّلُ الشرقَ وما آلَ إليه حاضرُه[10] صورةً غائبة، أو بمعنى أدقَّ جرى إزاحتُها مؤقَّتاً لتتراجعَ أمامَ انتصارِ العجزِ الذي حقَّقَهُ القشتالي. لقد كانَ المنتصرُ في تشويهِهِ لماضيهِ الحضاريِّ يسعى للتعبيرِ عن انتصارِهِ العاجزِ التابع؛[11] فأرادَ أن يُثبتَ هيمنتَه، فأثبتَ في الحقيقةِ تشظِّيَهُ وتبعيَّتَهُ وعجزَهُ عن مواجهةِ ماضيهِ وحاضِره. إنه يُجسِّدُ بذلك نفسَ صورةِ الرحَّالةِ العربيِّ العاجز، العاجزِ عن الانتماءِ للحاضرِ والاعتزازِ بماضيهِ وحضارته؛ فكلاهما يُعاني من استلابٍ عميق، وإن اختلفَت أدواتُهُ وأشكالُه.

"مُدقِّقاً النظرَ في الآثارِ التي لا تخفى على العينِ ينابيعُها العربيةُ رغمَ التشويهِ المتعمَّدِ بتمثالٍ هنا، أو ضريحٍ هناك، لا تسمحُ كرامةُ القديسِ الراقدِ تحتَ رخامَتِهِ بافتعالِ خطابٍ مضادٍّ لا جدوى منه".([12]) حضرَت الهويَّةُ المهزومةُ داخلَ المنتصر، ومعها حضرَ عجزُه؛ فلم يستطع أن يمحوَها، ولم يستطع أن يتعاطى معها بانتماء؛ فوقفَ في المنطقةِ الرماديةِ بينَ بين، وانتهجَ التشويهَ سبيلاً. وهذا يعني أنَّ الإسبانيَّ القشتاليَّ المنتصرَ كانَ مُتشظِّيًا تائهًا؛ فالعربيُّ المهزومُ يسكُنُه، وهو في ذاتِهِ يرى أنه بعضٌ منه، لكنَّهُ عجزَ عن المواجهةِ واتِّخاذِ الموقفِ الذي يُناسبُ ماضيَهُ وحاضِره. وهكذا يتكشَّفُ أنَّ الاستلابَ لم يكن حِكراً على المهزوم، بل امتدَّ ليطالَ المنتصرَ نفسَه، فأصبحَ كلاهما رهينَ هويَّةٍ مُضطربةٍ لا تستقرُّ على حال.

ضيَّقَ الإسبانيُّ التاريخَ على نفسِهِ حين جعلَ هويَّتَهُ كلَّها ردَّ فعلٍ عنيفٍ ضدَّ حضارتِهِ السابقة، كما خنقَ العربيُّ حاضرَهُ بالتيهِ الذي يعيشُهُ بينَ مجدٍ لا يستطيعُ بعثَهُ وحاضرٍ لا يقوى على بنائِه؛ فبدا الطريقُ إلى الماضي العريقِ ضيِّقاً خانقاً، لا لأنَّ الماضيَ ضئيلٌ أو حقير، بل لأنَّ العجزَ غلبَ على كليهما. وفي الممرِّ الضيِّقِ الجانبيِّ تتجسَّدُ أزمةُ التابعِ المنتصرِ في أبلغِ صورِها: أن تملكَ التاريخَ المجيدَ وتخشاه، وأن تعرضَ التراثَ وتُشوِّهَهُ وتبخسَهُ حقَّهُ في آنٍ واحد: "فصارَ المدخلُ إلى قصورِ العربِ حاليًا يمرُّ عبرَ ممرٍّ جانبيٍّ صغيرٍ وحقير".([13])

---

[9] (الحارثي، 2023، ص. 158)
[10] (سعيد، 2006، ص. 42-43)
[11] (سبيفاك، 2022، ص. 23)
[12] (الحارثي، 2023، ص. 155)
[13] (الحارثي، 2023، ص. 159)

يستمرُّ صراعُ التابعِ المنتصرِ مع تراثِهِ وحاضِره، ويعلو صوتُ العجز، وتتزايدُ التبعيةُ حتى لم تعُد تبعيةً واحدةً بل تبعيَّتَين مُتشابكتَين: تبعيةٌ للتراثِ والحضارةِ اللذَين أرادَ الانتصارَ عليهما فانتصرا عليه، فوقفَ عاجزًا مُنبهرًا بدقَّةِ نقشِهما: "يتكرَّرُ النقش: لا غالبَ إلا الله... عدا الأجزاءِ التي أضافَها ملوكُ الإسبانِ الذين تعاقبوا على القصرِ وأعطَوهُ تلك الصبغةَ المتنافِرةَ قصْدَ التمويهِ على جحافلِ السياحِ الذين يأتونَ من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها لمشاهدةِ قصرِ الحمراء".([14]) عجزَ المستلَبُ عن محوِ هويَّتِه؛ فعمدَ إلى تشويهِها بإثباتِ حضورِهِ معها، فجاءَت التبعيةُ الثانيةُ تبعيَّتُهُ للاستهلاكِ العام، كي يراهُ الأوروبيُّ وكي يُسِرَّ السائحَ بها. لكنَّ فعلَهُ كانَ شاهداً على عجزِهِ ناطقاً به؛ فالنقشُ "لا غالبَ إلا الله" يُؤَكِّدُ زيفَ دعواهم، فكلُّ انتصارٍ بشريٍّ زائل، وجدرانُ الحمراءِ تشهدُ على أصحابِها الجُددِ بما لا يستطيعونَ دحضَه. إنَّ الإضافاتِ الجديدةَ على التراثِ حاولَت التمويهَ والتعميةَ على قدرةِ الماضي وعجزِ الحاضر؛ فصارَت لوحةً للتعميةِ والاستهلاك، وبمرورِ الوقتِ تحوَّلَت إلى لوحةٍ تجاريةٍ فحسب، يراها السائحُ ويعجبُ بها، لكنَّها في جوهرِها لمن يعرفُ التاريخَ دليلٌ دامغٌ على العجزِ والتبعية، وصورةٌ حقيقيةٌ للتابعِ المنتصر.

لذلك كانَ من الطبيعيِّ أن تصيرَ الهويَّةُ صبغةَ ألوانٍ مُتنافِرة: "فهو مسجدٌ في كاتدرائية، وكاتدرائيةٌ في مسجد".([15]) في هذا التعبيرِ تبلغُ الصورةُ ذروتَها في تشخيصِ التابعِ المنتصر؛ فهذا الفضاءُ المعماريُّ غريبٌ لا يعرفُ نفسَه: لا هو بمسجدٍ تراثيٍّ يشهدُ بعظمةِ الماضي، ولا هو بكاتدرائيةٍ تعكسُ روحَ الحاضر؛ وهو بتلك الصورةُ الأمينةُ للهويَّةِ المضطربةِ التي بنى عليها التابعُ المنتصرُ وجودَهُ كلَّه، تلك الهويَّةُ التي رصدَها الرحَّالةُ في كلِّ مفصلٍ من مفاصلِ رحلتِه. فحين لا تستطيعُ أن تمحوَ ما سبقَك ولا أن تبنيَ ما يخصُّك، تنتهي إلى مصيرِ التابعِ المنتصر، الذي قيَّدَ نفسَهُ بصراعٍ مع ماضيهِ المجيد، فبقيَ تابعًا يُوهمُ نفسَهُ بالانتصار، والجدرانُ من حولِهِ تنطقُ بخلافِ ما يدَّعي، وتُعلنُ للعالمِ أنَّ الحضارةَ الحقيقيةَ لا تُمحى بالتشويه، ولا تُهزَمُ بالتغييب.

4

الهويَّةُ المطموسة (الرأسماليةُ والغياب)

لم تكنِ الهويَّةُ الأندلسيةُ وحيدةً في مواجهةِ خطرِ الطمسِ والزوال؛ فقد حذَّرَ فانون مبكِّراً من بربريَّةٍ ومأساويَّةٍ أيِّ برنامجٍ سياسيٍّ يقومُ على أساسِ الثأر، قائلاً إنَّ مثلَ هذا البرنامجِ شيءٌ مشين.([16]) وقد وقعَت إسبانيا فريسةً لما حذَّرَ منه فانون تحديدًا، حين آثرَت طمسَ ماضيها الحضاريِّ بدلاً من التصالحِ معه.

طمسَت الحروبُ الكبرى الهويَّة، وعلا صوتُ الدمِ والمالِ في كلِّ مكان، ومعه غابَت البهجةُ الإنسانية؛ فبعدَ حروبِ الاسترداد، والحروبِ الإمبراطوريةِ مع الإمبراطورياتِ البرتغاليةِ والفرنسيةِ والإنجليزية، ثمَّ الحربِ الأهليةِ وحقبةِ فرانكو، أمسَت الأندلسُ بكلِّ ما فيها صورةً مثاليةً للغيابِ والرحيل؛ فالبهجةُ القديمةُ

[14](الحارثي، 2023، ص. 164-165)
[15](الحارثي، 2023، ص. 167)
[16](غبسون، 2013، ص. 44)

لم تعُد حاضرة، والغناءُ والموسيقى ارتحلا مع الراحلين، وحلَّ محلَّهُما رنينُ الذهبِ وسطوةُ الرأسماليةِ التي استعبدَت الجميع.

استعارَ الرحَّالةُ العربيُّ وصفَ الرحَّالةِ الأمريكيِّ واشنطن إيرفنج ليصفَ الشعبَ الأندلسي، كيفَ كانَ قديماً وكيفَ كانَت البهجةُ مفتاحَ شخصيَّتِه، وكيفَ آلَ حالُهُ الآن: "عندما حكمَ المراكشيونَ غرناطةَ أيُّها السنيور، كانوا شعباً أبهجَ مما هم عليه اليوم؛ إذ كانوا لا يُفكِّرون إلا بالحبِّ، والموسيقى، والشعلا([17])؛ لذلك عملوا من كلِّ مناسبةٍ فرحاً، وكرَّسوها بالموسيقى، ... وفي تلك الأيامِ كانَ إذا طلبَ الشحاذُ خبزاً طُلِبَ منه الغناءُ مقابلَ ذلك، وحتى أفقرُ الشحاذين كانوا يشحذونَ على نَغَمٍ وحُداء، ويُجازَون على ذلك بقطعٍ ذهبية".([18])

كانَت هويَّةُ البهجةِ هي المسيطرةَ على الأندلسيين؛ فلم تكنِ البهجةُ والإبداعُ في الهويَّةِ الأندلسيةِ ترفًا، بل كانا جوهرَ الذاتِ والهويَّةِ الإنسانيةِ الأندلسية، يظهرانِ معهم في كلِّ الأوقات، حتى في أحلكِ اللحظات وقتَ العوزِ والفقرِ والتأزُّم؛ فكانوا يحيَون بلا خوف، بلا قلق، بلا غياب.

تغيَّرَت الأحوالُ وتبدَّلَت، ولم يعُد التعاطي مع الموهبةِ كما كانَ في الماضي؛ فقد غزَت الرأسماليةُ إسبانيا، فغابَ التذوُّقُ الفنيُّ كما يُكمِلُ الرحَّالةُ العربيُّ على لسانِ واشنطن إيرفنج: "فقلتُ له: هل يعني هذا أنَّكم قد فقدتُم الإحساسَ الشعريَّ العامَّ الآن؟ أجاب: كلا أيُّها السنيور، إنَّ سكانَ بربرا وحتى من هم من الطبقاتِ الفقيرة، لا يزالون يُؤلِّفون المقطوعاتِ الشعريةَ والموسيقيةَ الجيدةَ كما في الماضي، لكنَّ الموهبةَ الشعريةَ لم تعُد تُجازى كما في الماضي؛ لأنَّ الأغنياءَ الآنَ يُفضِّلون رنينَ الذهبِ على الشعرِ والموسيقى".([19])

سعَت الرأسماليةُ إلى تدجينِ الموهبةِ لا قتلِها، سعَت إلى تجويعِها كي تصمُت، وكي تتحرَّكَ وفقَ مشيئةِ الرأسمالي؛ فلا تُطالبُهُ بمقابلِ الإبداع، بل تنتظرُ ما يُلقيهِ لها. وأكمَلَ الهروبُ عمليَّةَ طمسِ الهويَّةِ عبرَ العنفِ والقسوة، فكلاهما حاربَ الهويَّةَ وحرمَهُما من الأكسجين، وجوَّعَهُما، وأبقَيا الجسدَ فقط في حالةِ ضعفٍ ووهن؛ فكانَت النتيجةُ واحدة: الغياب.

ولم تغِبِ الهويَّةُ الأندلسيةُ الإسبانيةُ وحدَها، بل غابَت معها الهويَّةُ العربيةُ أيضاً؛ فالرحَّالةُ العربيُّ حين بحثَ عن هويَّتِه وتاريخِهِ ومجدِه لم يجد في ذاكرتِهِ الخاصةِ أو في ذاكرتِهِ الجمعيةِ ما يصفُ به تاريخَ الأندلسِ وهويَّتَها؛ فاستعارَهُ من كلامِ الرحَّالةِ الأمريكي. وكأنَّ الهويَّةَ المطموسةَ لا تُطمَسُ مرَّةً واحدة، بل تُطمَسُ مرَّتَين: مرَّةً حينَ تُسرَق، ومرَّةً حينَ يعجزُ أصحابُها عن وصفِها إلا بعيونٍ غريبة. وفي هذا تجلٍّ صارخٌ لصورةِ الاستلابِ التي رصدَها البحثُ في مباحثِهِ السابقة؛ فالهويَّةُ المستلَبةُ لا تكتفي بسرقةِ الحاضر، بل تسرقُ معه القدرةَ على استحضارِ الماضي.

---

[17] تجدر الإشارة هنا إلى أن كلمة "الشَّعلا" الواردة في الاقتباس هي كلمة أندلسية تشير إلى نوعٍ من الغناء الشعبي الأندلسي المرتبط بالفرح والابتهاج، وقد أُبقيت كما هي في النص الأصلي احتراماً لدلالتها التراثية.

[18] (الحارثي، 2023، ص. 155)

[19] (الحارثي، 2023، ص. 155)

في تلك الظروفِ طُمِسَت الهويَّةُ الإسبانيةُ التي كانَت تجمعُ الشرقَ والغرب، وحلَّ محلَّها التشظِّي وغيابُ الهويَّةِ الحقيقية، ووقعَت فريسةً للاضطراب؛ فروبرتو الإسبانيُّ بعدَ فشلِهِ في إقناعِ العربيّ بعرضِهِ الأولِ راحَ يُفتِّشُ عن المال، فاكتفى أن يكونَ دليلاً سياحيًا: "بعدَ أن عرفَ روبرتو أنَّني لستُ الشخصَ المناسبَ لرغباتِهِ تودَّدَ إليَّ بطريقةٍ أخرى: أن أغدوَ في أوقاتِ فراغي دليلاً سياحيًا يدلُّكَ على خفايا المدينة".([20]) يُؤكِّدُ النصُّ غيابَ الهويَّةِ وطمسَها؛ فروبرتو سريعُ التحوُّل، فبعدَ أن رفضَهُ الرحَّالةُ لم ينسحب ولم يغضب، بل تحوَّلَ إلى عرضٍ آخرَ يجلبُ المال. وهذا ما يُؤسِّسُ لغيابِ الهويَّةِ لديه؛ فقد أصبحَت هويَّتُهُ في ظلِّ هيمنةِ الرأسماليةِ سوقًا محتملاً، تتمُّ فيه عمليَّاتُ التسليعِ بسرعةٍ كي تُواكبَ الحدث: المتعة/المال.

قرَّرا معًا أن يذهبا إلى قصرِ أحدِ الأثرياء ليستبدلا هويَّتَيهِما الغائبتَين المطموستَين: "واصطحبَني في سيارةِ أحدِ أصدقائِهِ المغاربةِ في ساحلِ ماربيا في قصرِ أحدِ الأثرياء... وهناك ستجدُ دزينةً من الأندلسياتِ اللواتي يبحثنَ عن رفيقٍ مثلك... قلتُ لنفسي لِمَ لا؟ رفضُ عرضٍ كهذا تندمُ له سرائرُ النفوس، فكيفَ بوسائدِها وأسِرَّتِها".([21]) تتجلَّى في هذه الفقرةِ لحظةُ الاستسلام، استسلامُ الهويَّةِ المطموسة؛ فالرحَّالةُ العربيُّ الذي كانَ يشكو من غيابِ هويَّتِهِ واستلابِها في لحظةِ ضربةِ الهراوة، وفي لحظةِ الاعتذارِ للسفيرِ لا لشخصِه، وفي لحظةِ تشويهِ آثارِه، جاءَ الآنَ ليبيعَ هو الآخرُ ما تبقَّى له من هويَّة؛ فيتساوى في لحظةٍ فارقةٍ مع روبرتو الشابِّ الذي عرضَ جسدَهُ على العربي، ويتَّحدانِ في لحظةِ استبدالِ اللذَّةِ الآنيةِ بالهويَّةِ على موائدِ الأثرياء. وصلَ روبرتو لهذه اللحظةِ لأنه يُعاني اضطرابًا داخليًا للهويَّة، واندفعَ الرحَّالةُ العربيُّ إليها لأنه يُعاني الاستلابَ الخارجيَّ لهويَّتِه؛ فالطريقُ مختلفٌ والمصيرُ واحد.

جاءَت عبارةُ "لِمَ لا" لتُجسِّدَ الاستسلامَ التامَّ، وعبارةُ "تندمُ لها النفوس" لتُؤكِّدَ أنَّ الرحَّالةَ لم يتعرَّض لخديعة، بل سارَ إلى هدفِهِ بقناعةٍ ومعرفة؛ فهو استسلامُ العارفِ لا المخدوع، وهو في ذلك أشدُّ إيلاماً وأعمقُ دلالةً على مستوى الهويَّةِ المطموسة.

إنَّ هذا المشهدَ يُؤكِّدُ انحرافَ الذاتِ العربيةِ والأندلسية، ورحلتَهُما عبرَ الزمنِ والظروفِ والهزائمِ والحروبِ والرأسمالية؛ ففي وقتِ الحضارةِ كانَت الهويَّةُ مُبتَهِجةً تهوى الإبداعَ وتُمارسُهُ بوصفِهِ جزءاً من هويَّتِها الوجودية، وصولاً إلى تشظٍّ واضحٍ في الهويَّة؛ فنحن الآنَ أمامَ هويَّتَين مطموستَين غابَتا على موائدِ الأثرياء، في طعامِهم ونسائِهم، تسقطانِ بلا ثمنٍ إلا ضياعَ الكرامةِ وطمسَ الهويَّة، لتُغلَقَ بذلك دائرةُ الاستلابِ الكاملةِ التي رصدَها البحثُ من بدايتِه: استلابٌ من الخارجِ وانهيارٌ من الداخل.

5

الخرافةُ وتفسيرُ الحضارةِ (التابعُ مرآةُ العجز)

تعجزُ الهويَّةُ المستلَبةُ عن فهمِ ماضيها وتراثِها، أو التعايشِ معه، أو حتى الإفادةِ منه؛ لأنَّها وقعَت فريسةً للاستلاب، فتندفعُ نحوَ الخرافةِ وعالَمِ الجنِّ والسحرِ لتفسيرِ ما يعجزُ العقلُ عن تبريره، فتقعُ أسيرةً لهذا

[20](الحارثي، 2023، ص. 156)
[21](الحارثي، 2023، ص. 156)

العالَمِ الخرافيّ لأنَّهُ الوحيدُ الذي يرضى بهِ العقلُ المستلَبُ ويُقنعُه. فالخرافةُ وسيلةٌ للهروبِ من العجز، ووسيلةٌ مريحةٌ للاستسلامِ للكسلِ والتأخُّر؛ فعندما يُقارنُ الإنسانُ المستلَبُ بينَ تراثِ أجدادِهِ العظيمِ وبينَ حاضرِهِ التعيس، يلجأُ إلى الخرافةِ لتفسيرِ تفوُّقِ الماضي؛ لأنَّ هذا التراثَ العظيمَ لا يمكنُ في تصوُّرِهِ أن يبنيَهُ الأجدادُ دونَ مساعدةٍ من الجنّ الذي سُخِّرَ لخدمتِهم، وبهذا يُرضي المستلَبُ نفسَهُ ويُواصلُ استسلامَهُ وعجزَه.

ولا بدَّ هنا من الإشارةِ إلى أنَّ مفهومَ "تبعيةِ العجز" الذي يُمثِّلُ محورَ هذا المبحثِ يُشيرُ إلى تلك الحالةِ التي يتحوَّلُ فيها عجزُ الهويَّةِ المستلَبةِ من مجرَّدِ قصورٍ في الفعلِ إلى نمطٍ راسخٍ في التفكيرِ والتأويل، يجعلُ المستلَبَ يُوظِّفُ الخرافةَ والغيبيَّاتِ أداةً لتبريرِ عجزِهِ بدلاً من مواجهتِه. وهذا امتدادٌ طبيعيٌّ لما رصدَهُ البحثُ في مباحثِهِ السابقةِ من صورِ الاستلابِ والاضطرابِ والطمس؛ غيرَ أنَّهُ هنا يبلغُ مرحلةً أشدَّ خطورة؛ إذ يتحوَّلُ العجزُ من سلوكٍ عارضٍ إلى بنيةٍ ذهنيةٍ راسخةٍ تُحكِمُ قبضتَها على وعيِ المستلَبِ وطريقةِ تأويلِهِ للعالَمِ من حوله.

"الملكُ العربيُّ الذي بنى قصرَ الحمراءِ كانَ ساحراً كبيراً، باعَ نفسَهُ للشيطانِ كما يُؤكِّدُ البعض".[22] يلجأُ تابعُ العجزِ إلى الخرافةِ العدوانيةِ، أو تأويلِ تاريخِ أجدادِهِ بصورةٍ خرافيةٍ عدوانية؛ فهو لا يعترفُ بعظمةِ أجدادِه، بل يهربُ إلى اتِّهامِهم بأنَّهم باعوا أنفسَهم للشياطينِ الذين كافأُوهم على سوئِهم بعظمةِ الحضارةِ والتراث. فمثلُهُ، تابعُ العجز، لا يستطيعُ أن يقولَ إنَّ هذا البناءَ العظيمَ بناهُ العظماء؛ لأنَّهُ سيجدُ نفسَهُ موضعَ اتِّهامٍ وتساؤل: أينَ أنتَ منهم؟ أينَ صُنعُك؟ ألستَ حفيدَهم؟ فيلجأُ للخرافةِ العدوانيةِ التي تُعفيهِ من المسؤوليةِ ومن الإحساسِ بالعجز.

تتجلَّى هنا تبعيةُ العجزِ الحقيقيّ في أوضحِ صورِها؛ فالحديثُ هنا ليسَ عن الملكِ العربيّ إنما يصفُ عجزَهُ هو، الذي تحوَّلَ إلى حقد، ثمَّ تحوَّلَ الحقدُ إلى اتِّهامٍ للحضارةِ بأنَّها نبتةٌ شيطانيةٌ نتيجةُ تزاوجِ الجدِّ مع الشيطان.

"لذلك وضعَ كلَّ هذا الحصنِ تحتَ هذا الرمزِ الذي يُشكِّلُ تعويذةً سحرية، وهذا الذي أبقى الحمراءَ كلَّ هذه المئاتِ من السنينَ رغمَ الطبيعةِ والزلازل".[23] تبلغُ تبعيةُ العجزِ منتهاها بتصويرِ هذا الصرحِ الحضاريّ العظيمِ بالبناءِ الشيطانيّ الذي تحفظُهُ تعويذةٌ شيطانيةٌ من الطبيعةِ والزلازل؛ فالتابعُ لا يستطيعُ أن يعترفَ بالمنجزِ الحضاريّ لأجداده؛ لأنَّ في ذلك اتِّهامًا صريحاً له بالعجز، وهذا ما يرفضُ الاعترافَ به.

"وتذكرُ التقاليدُ أنَّ هذه التعويذةَ ستظلُّ إلى أن تصلَ اليدُ المنحوتةُ وتقبضَ على نحتِ المفتاح، آنذاك سيتداعى القصرُ كلُّهُ إلى حطام، وتظهرُ الكنوزُ التي دفنَها العربيُّ تحته".([24]) تنكشفُ سرديَّةُ العجزِ حينَ يتحدَّثُ عن انهيارِ القصر؛ فيتأكَّدُ لنا أنَّهُ لا يُحاولُ فهمَ البناءِ أو هندستَهُ أو تأويلَهُ الحضاري، إنما يترقَّبُ انهيارَهُ للبحثِ عن الكنوزِ العربيةِ تحته. إنَّ تبعيةَ العجزِ لا تبحثُ عن تراثِ الأجدادِ العظيمِ كي

---

[22] (الحارثي، 2023، ص. 158)
[23] (الحارثي، 2023، ص. 158)
[24] (الحارثي، 2023، ص. 158)

تستلهمَ عبقريَّتَهُ وتَقتديَ بها، بل تبحثُ عن ركامِه، وعن هدمِهِ لتربحَ ما تحتَهُ من كنوز، أو بمعنى أدقَّ لتربحَ خرافاتِهِ وخيالاتِهِ العاجزة.

يُؤَكِّدُ ما سبقَ أنَّ الهويَّةَ المستلَبةَ وقعَت فريسةً للقهرِ والاضطهادِ والعنف، حتى خلقَت بيدَيها تبعيةَ العجزِ في صورٍ غيبيةٍ يراها المستوطِنُ فيتسلَّى بها؛ فتارةً يُحبُّ خرافاتٍ عتيقةً فظيعة، وتارةً يُكبِّلُ نفسَهُ بطقوسٍ دقيقة. هكذا يهربُ المصابُ بمرضِ الحصارِ الذي يُلحُّ عليه، بأن يفرضَ على نفسِهِ وسواساتٍ تُطاردُهُ في كلِّ لحظة؛[25] فتارةً يهربُ إلى هدمِ تراثِهِ تعبيرًا عن عجزِه، وتارةً يصبُّ غضبَهُ على الضحيةِ لا الظالم. وفي كلتا الحالتَين يظلُّ التابعُ أسيرَ دائرةٍ مغلقةٍ من العجز؛ عجزٌ يُنتجُ خرافة، وخرافةٌ تُعمِّقُ العجز، حتى تغدوَ الهويَّةُ المستلَبةُ في نهايةِ المطافِ مرآةً لا تعكسُ إلا صورةَ ضعفِها وتبعيَّتِها، عاجزةً عن رؤيةِ ما وراءَ الخرافةِ من حقيقةٍ حضاريةٍ وإنسانيةٍ عظيمة.

6

التمرُّدُ على الهويَّةِ الذاتيةِ (التابعُ المُشقَّق)

تتحدَّثُ سبيفاك عن التابعِ وعن محاولاتِهِ الكلامَ أو التعبيرَ عن هويَّتِهِ الذاتيةِ داخلَ بنيةِ الغيابِ والاستعلاءِ الاستعماريِّ الحاضرةِ بداخِله؛ لكنَّ هذه المحاولةَ تنتهي بالفشلِ والعجز، أو الفهمِ الخاطئ، أو الانتقاصِ من الذاتِ بشكلٍ ساخر، وفي بعضِ الحالاتِ بالانكفاءِ على الذاتِ أو الانتحار.[26]

لا بدَّ هنا من تحديدِ مفهومَين محوريَّين يتكرَّرانِ في هذا المبحث: أمَّا "التابعُ الهوائي" فيُشيرُ إلى ذلك التابعِ المعلَّقِ بينَ هويَّتَين، لا ينتمي لواحدةٍ منهما بشكلٍ كامل، يتأرجحُ في فضاءٍ هوائيٍّ بينَ ما كانَ وما هو كائن. وأمَّا "التابعُ المشقَّق" فيُشيرُ إلى التابعِ الذي تشقَّقَت هويَّتُهُ وتصدَّعَت من الداخلِ جرَّاءَ تناقضاتِهِ الذاتيةِ وعجزِهِ عن التوفيقِ بينَ مطالبِ هويَّتِهِ الأصيلةِ وضغوطِ هويَّةِ الآخر.

"النافذةُ كانَت نفوذي الوحيد... كانَت ضعفي أيضاً كسائحٍ مجهولِ الهويَّة".[27] تُمثِّلُ النافذةُ في النصِّ المقتبسِ بوابةَ الرؤيةِ الحقيقيةِ التي يرى الرحَّالةُ العالَمَ من خلالِها؛ يرى الحياةَ والحيويَّةَ التي يتميَّزُ بها الناسُ في المدينةِ الغربية. لكنَّها في الوقتِ نفسِهِ الوسيلةُ التي تكشفُ له ضآلتَهُ وضعفَه؛ فهو هنا بمفرده، لا يفهمُهُ أحد، ولا يفهمُ أحدًا. إنَّها لحظةُ مكاشفةٍ حقيقية، يعترفُ فيها الرحَّالةُ بأنَّهُ "المجهول" الذي جاءَ يبحثُ عن هويَّتِهِ في أرضِ أجداده، فيقفُ صامتًا عاجزًا خلفَ النافذةِ لا يتكلَّم.

"يُثيرُ جوازُ سفرِهِ الدهشةَ والارتياب".[28] حاولَ التابعُ الهوائيُّ أن يتكلَّمَ وأن يُعبِّرَ عن هويَّتِهِ ووجودِه؛ لكنَّهُ عجزَ عن كلِّ هذا. وعندما استطاعَ النطقَ والكلام، كانَ تمرُّداً على هويَّتِهِ مُمثَّلةً في جوازِ سفرِه، ناعتاً إيَّاهُ بأنَّهُ يُثيرُ الدهشةَ والارتياب؛ فجوازُ سفرِهِ يُعبِّرُ عنه، لكنَّهُ يُعبِّرُ بما لا يريدُهُ الرحَّالةُ التابعُ الهوائي: "لأنَّهُ يقرأُ من اليمينِ إلى اليسار، ولأنَّ شعارَهُ المنقوشَ في الغلافِ خنجرٌ مُعمَّدٌ في خاصرتِهِ سيفانِ مُتقاطعان،

---

[25] (فانون، د.ت، ص. 28)
[26] (سبيفاك، 2022، ص. 210-214)
[27] (الحارثي، 2023، ص. 161)
[28] (الحارثي، 2023، ص. 161)

ولأنَّ الصورةَ الفوتوغرافيةَ ظهرَ وجهُها بدِشداشةٍ وعمامةٍ ينتمي صاحبُهُما إلى القرونِ الوسطى، وربَّما لعصرِ بني الأحمرِ بالذات".[29]

وصفَ فانون كيفَ ينظرُ المستعمَرُ التابعُ إلى مدينةِ المركزِ بنظرةِ شهوةٍ وحسد؛ فهو لا يريدُ فقط امتلاكَ ما يملكُهُ المركز، بل يطمحُ إلى "الحلولِ محلَّه"، وهو نوعٌ من التمرُّدِ على كينونتِهِ[30] بوصفِهِ تابعًا يرغب في التحوُّلِ إلى سيّد، سيّدٍ في اللغةِ التي يتحدَّثُها؛ فيُنكرُ لغتَهُ "التي تُكتَبُ من اليمينِ إلى اليسار"، ويُنكرُ زيَّهُ "دِشداشةً وعمامة"، ويُنكرُ حاضرَهُ حينَ "يُنسَبُ صاحبُها إلى القرونِ الوسطى"؛ فهو التابعُ الهوائيُّ الذي يربطُ نفسَهُ بعصرِ الهزيمةِ والطردِ عصرِ "بني الأحمر". ينظرُ التابعُ إلى كلِّ رموزِ وطنِهِ نظرةَ ارتيابٍ وشك، ويظنُّ أنَّ نظرةَ الارتيابِ هذه تأتيهِ من الآخر؛ فالآخرُ — وهذا محضُ وهمٍ وهزيمةٍ تسكنُ عقلَ التابعِ الهوائي — يرى "الخنجرَ والسيفَينِ المتقاطعَين" رموزا للرجعيةِ والتخلُّفِ والتهديد. يشعرُ التابعُ الهوائيُّ بتوتُّرٍ دائمٍ وقلقٍ وجودي، يدفعُهُ إلى محاولةِ جلدِ ذاتِهِ والنيلِ من حضارتِهِ ورموزِها؛ كي يشعرَ بالراحةِ ويتَّقيَ نظرةَ الآخرِ الغربيِّ بالمسارعةِ إلى الانتقاصِ من هويَّتِهِ كي يقبلَهُ الآخرُ أو يسمحَ له بالعبورِ إلى مراكزِ الحضارة.

"لم أعرف ماذا أفعل، لم أعرف، لكنَّني خلعتُ ملابسي بعدَ ساعتَين من الانخطاف،... ودلقتُ ماءً غِرناطيًّاً على جسدي لأوَّلِ مرَّة (في محاولةٍ منّي لتبريدِ المسافةِ التاريخيةِ بينَ القابعِ في الغرفةِ والقابعِ في صورةِ جوازِ السفر)".[31] بعدَ كلِّ ما مرَّ به الرحَّالةُ العربيُّ في رحلتِهِ قرَّرَ أن يتعايش، لكنَّهُ وجدَ نفسَهُ عاجزًا عن ذلك؛ إنَّهُ في حيرةٍ وجوديةٍ وتساؤلاتٍ حقيقية، لذلك تتكرَّرُ عبارةُ "لم أعرف" التي تُؤكِّدُ عجزَ التابعِ عن إيجادِ الفضاءِ الذي يُنصَتُ إليه فيه؛ لا أحدَ يشعرُ به ولا أحدَ يراه. وعبارةُ "خلعتُ ملابسي" تُؤكِّدُ محاولاتِهِ الهروبَ من هويَّتِهِ أو من ذاتِه. وعبارةُ "بعدَ ساعتَين من الانخطاف" تُشعرُنا بالغموضِ المحيطِ بهذا التابع؛ فالنصُّ لا يقولُ مكانَ الانخطافِ أو زمانَهُ أو فاعلَه، ويتركُنا نبحثُ معه عن جوهرِ هذا الانخطاف؛ لقد سقطَ في فخِّ التاريخِ والواقع، تاريخِهِ وواقعِه، وبينَهُما غابَ وترنَّح، فـ"دلقَ الماءَ الغِرناطيَّ" في محاولةٍ منهُ للخلاصِ من التيهِ الذي وقعَ فيه؛ إنَّها مرحلةُ ما بعدَ الانهيار، لكنَّها تبقى محاولةً هوائيةً عاجزة.

وقعَ العربيُّ الإسبانيُّ فريسةً للهيمنةِ الطاغيةِ التي جعلَتهُ يرى هويَّتَهُ بصورةٍ عكسيةٍ زائفة، تدفعُهُ للارتباكِ والحيرةِ التي لا يستطيعُ معها تحديدَ موقفِهِ من ذاتِهِ وهويَّتِه؛ فنجدُهُ ناقمًا عليها يريدُ الخلاصَ منها، لكنَّهُ يُعاودُ التمسُّكَ بها عندما يلحظُ التقديرَ أو يرى بوادرَ الأملِ التي تُخبرُهُ بقيمةِ هويَّتِه؛ فيُحاولُ التمرُّدَ على التابعِ الهوائيِّ بداخِله: "قرأتُ الصحفَ ومللتُ من أخبارِ العاربةِ والمستعربة، كانَ حزني كبيراً لا سيَّما وأني في مدينتي التي لم تعُد مدينتي، ولغتي التي لم تعُد لغتي".([32]) ينتقلُ التابعُ الهوائيُّ المتذبذبُ من مرحلةِ النقمةِ على هويَّتِهِ وحضارتِهِ وتاريخِهِ إلى مرحلةِ الألمِ والحزن؛ وهو ما يُؤكِّدُ أنَّ التابعَ الهوائيَّ في مرحلةِ الشعورِ بالوجعِ الذي يُعدُّ آخرَ قيمةٍ نفسيةٍ يمتلكُها من هويَّتِهِ المستلَبة. ورغمَ أنَّ هذا الحزنَ يُؤكِّدُ وعيَ الرحَّالةِ ببعضِ

---

[29] (الحارثي، 2023، ص. 161)
[30] (فانون، د.ت، ص. 42)
[31] (الحارثي، 2023، ص. 161)
[32] (الحارثي، 2023، ص. 162)

هويَّتِهِ المستلَبة، فإنَّهُ في الوقتِ نفسِهِ يجعلُهُ عاجزاً عن الفعل؛ وهنا تكمنُ مشكلةُ التابعِ المتذبذبِ الهوائي. ويأتي التعبيرُ "لغتي التي لم تعُد لغتي" ليُؤكِّدَ غيابَ الفضاءِ الذي تُفكِّرُ فيه الهويَّةُ وتتنفَّسُ من خلاله؛ فاللغةُ ليسَت مدينةً تُغادرُها وتبحثُ عن غيرِها، إنَّما هي الهويَّةُ الحقيقيةُ التي تسكنُها وبها تُقيمُ حياتَها وثقافَتَها وعلمَها.

انتقلَ الرحَّالةُ العربيُّ من النقمةِ على هويَّتِهِ إلى مرحلةِ الحزنِ التي تُمثِّلُ جوهراً مهمًّا في صراعِهِ الداخلي؛ ثمَّ انتقلنا بعدَها إلى مرحلةِ الاعتزازِ بهويَّتِهِ من جديد، لكنَّ فعلَ الاعتزازِ جاءَ من الخارجِ لا من داخلِه؛ فهو لا يزالُ ردَّ فعلٍ للآخرِ سلبًا أو إيجابًا: "عندما تحدَّثَ بحياديةِ الأندلسيّ الذي يعترفُ بصنيعِ العربِ (رغمَ أنَّهم كانوا غزاة) وما فعلَتهُ في المقابلِ إسبانيا الحديثةُ من تهميشٍ لغتِهم وثقافتِهم الخاصة".[33] تكمنُ مشكلةُ التابعِ المشقَّقِ في أنَّهُ صدى صوتٍ للآخرِ وصدى فعلِه؛ فالرحَّالةُ العربيُّ التابعُ المشقَّقُ لا يعرفُ قيمةَ هويَّتِهِ أو ذاتِهِ إلا حينما يعترفُ به الآخرُ أو يُخبرُهُ بها، وفي الوقتِ نفسِهِ تنهارُ الهويَّةُ وتغيبُ إذا شكَّكَ الآخرُ فيها. يظلُّ التابعُ المشقَّقُ أسيرَ الخارجِ وأسيرَ هويَّةِ الآخرِ وكلامِه، لا يستطيعُ أن يُنبثقَ اعتزازُهُ بنفسِهِ من داخلِهِ أبداً؛ لأنَّهُ بنى وعيَهُ عبرَ قوَّةِ الآخرِ وفكرِهِ ورؤيتِه.

"صعدتُ بعدَ أن ودَّعتُه، ونِمتُ نومَ الثورِ الجريح، ولم تقتربْ منّي الأحلامُ تلك الليلة، ربَّما إشفاقًا على ما آلَ إليه حالُ الجثَّة".[34] لا تزالُ بقايا روحِ الإرادةِ باقيةً فيه قادمةً من الخارج، لكنَّها حيَّةٌ وتُحاول؛ لذلك يصفُ نفسَهُ بالثورِ الجريحِ الحيّ الذي لم يمُت، لكنَّ الجرحَ أقعدَهُ عن الحركةِ وأضعفَ قواه دونَ أن يقتلَهُ أو يقتلَ بقايا المحاولة. وتبدو المحاولةُ أحياناً عاجزة؛ فالأحلامُ التي تُمثِّلُ تنفيسًا عن متاعبِ الحيلةِ ومحاولةً لترتيبِ الواقعِ في المنامِ لم تأتِ إليه، وكأنَّهُ أرادَ أن يقولَ لنا إنَّ حالَ التابعِ المشقَّقِ باقٍ كما هو بينَ بين.

"ثمَّ هبطتُ الدرجَ فكانَت مفاجأةً لم تكن في الحسبان: إفطارٌ غِرناطيٌّ أوصى به شيخُ العائلة، لم يكن موجودًا لأشكرَه، لكنَّني شكرتُ زوجةَ ابنِهِ التي كانَت فخورةً بتقديمِها الإفطارَ المجاني. (هنا تذكَّرتُ ضرورةَ الخنجرِ والسيفَينِ وعمامةِ بني الأحمرِ في جوازِ السفر)".[35] يعكسُ هذا المشهدُ النفسيُّ حالةَ التردُّدِ والتشقُّقِ المهيمنةَ على التابع؛ فبينما بدأَ بالنقمةِ على جوازِ سفرِهِ وشعارِه، عادَ مرَّةً أخرى يحتفي بهما من جديد. لكنَّ النقمةَ والاحتفاءَ كلَيهِما جاءَا بفعلِ الآخرِ أو من الخارج؛ وهذا يعكسُ أزمةَ الهويَّةِ لدى التابعِ عمومًا والمشقَّقِ خاصَّة؛ فهو لا يملكُ مرجعيَّةً داخليةً ثابتةً يرجعُ إليها في تقييمِ هويَّتِه، بل يبقى أسيرَ الصدمةِ والانعكاسِ في مرآةِ الآخر، مُتأرجِحاً بينَ النقمةِ والاحتفاءِ في دوَّامةٍ لا تنتهي؛ وهي الصورةُ الأكثرُ تعبيرًا عن المآلِ الذي تنتهي إليه الهويَّةُ المستلَبةُ حينَ تفقدُ مرجعيَّتَها الداخليةَ وتُفوِّضُ حكمَها للآخر.

7

المرآةُ العاكسة "انزعاجُ التابعِ المُشقَّقِ من صورتِه"

---

[33] (الحارثي، 2023، ص. 162)
[34] (الحارثي، 2023، ص. 162)
[35] (الحارثي، 2023، ص. 162)

تتجلَّى في هذا المبحثِ صورةٌ جديدةٌ من صورِ الاستلابِ التي رصدَها البحثُ في مساره؛ وهي صورةُ "المرآةِ العاكسة"، ويُقصدُ بها تلك الآليةُ النفسيةُ التي يرى فيها التابعُ المشقَّقُ صورتَهُ الحقيقيةَ مُنعكِسةً في الآخرِ المشابِهِ له في استلابِهِ وتشقُّقِه؛ فبدلاً من أن تكونَ هذه الرؤيةُ مدعاةً للوعيِّ والمراجعة، تغدو مصدرَ انزعاجٍ ونفور، فيُسارعُ التابعُ إلى الهروبِ منها أو إلقائِها على غيرِهِ بدلاً من مواجهتِها. وهذه الصورةُ هي الامتدادُ الطبيعيُّ لما رصدَهُ البحثُ من قبلُ في تشقُّقِ التابعِ وتذبذُبِه؛ غيرَ أنَّها هنا تبلغُ مرحلةً أعمقَ وأشدَّ تعقيداً. ولعلَّ هذه الآليةَ النفسيةَ تجدُ سنداً نظرياً خصباً فيما طرحَهُ جاك لاكان في نظريَّتِهِ عن "مرحلة المرآة"، حيثُ تتشكَّلُ الأنا عبرَ تماهٍ مع صورةٍ خارجيةٍ يشوبُها "سوءُ المعرفة"[36]؛ غيرَ أنَّ المرآةَ في حالةِ التابعِ المشقَّقِ تنقلبُ على وظيفتِها التأسيسيةِ عندَ لاكان: فبدلَ أن تمنحَهُ وهمَ الاكتمالِ والوحدةِ كما يحدثُ للطفلِ أمامَ مرآتِه، تُعيدُ إليه صورةَ تشقُّقِهِ وانشطارِه بعينِها، فيتولَّدُ الانزعاجُ بدلَ الابتهاج، ويغدو الآخرُ المشابهُ تهديداً لا مصدرَ طمأنينة.

"شاهدتُ بينَ الحشدِ فلبينيةً (أو هكذا خمَّنت) واقفةً بغضبٍ أمامَ آلةِ الصرفِ التي لم تُوفَّق في استخراجِ بيزيتا واحدةٍ منها ببطاقةِ الأمريكان إكسبريس التي بحوزتِها، قلتُ هذه ضالَّتي وأنا ضالَّتُها".[37] الفلبينيةُ التي التقطَتها عينُ الرحَّالةِ لم تكن شخصًا عابرًا، إنَّما كانَت هي نفسُها صورةَ الرحَّالةِ وحالتَه؛ فسرعةُ التعاطفِ النفسيِّ تُخفي وراءَها آليةَ الإسقاطِ النفسي؛ لقد رأى فيها ما يُنكرُهُ في نفسِه، رأى نفسَهُ وقتَ ضجرِهِ وغضبِهِ عندما فشلَ في إيجادِ من يتحدَّثُ معه بلغةٍ يفهمُها، وعندما ضاقَت به السُّبُلُ وعجزَ عن إيجادِ فندقٍ يبيتُ فيه؛ فكانَ غضبُها غضبَه، وحيرتُها حيرتَه. سارعَ إليها وهو يسعى للدفاعِ المعاكس؛ لأنَّهُ التمسَ ذاتَهُ فيها في لحظاتِ الضعفِ والغضبِ واليأس؛ فهذه المرأةُ تُجسِّدُ كلَّ ما يهربُ منه في ذاتِه، لكنَّهُ يُسارعُ إليها في الحقيقةِ كي يُساعدَها وكي يكونَ الأقوى، ويُحاولُ إثباتَ حضورِه؛ إنَّهُ يُحاولُ تجاوزَ صورتِهِ المتشظِّيةِ المتشقِّقة، ويُحاولُ أن يكونَ مَتبوعًا وينزعَ ثوبَ التابعِ المشقَّق. وعبارةُ "ضالَّتي وأنا ضالَّتُها" تُؤكِّدُ عجزَهُ وفَقدَهُ ومحاولتَهُ التغلُّبَ عليه.

"وسألتُها إن كانَت تعرفُ بنسيونًا في وسطِ المدينةِ بثمنٍ مناسب".[38] في تلك اللحظةِ انهارَت بنيةُ الدفاعِ المعاكس، وانكشفَ احتياجُه؛ فبدلاً من المبادرةِ بالسؤالِ عنها وعمَّا تحتاج، سقطَ في لحظةِ وعيٍ بحقيقتِه، وراحَ يطلبُ منها المعونةَ لا يُقدِّمُها لها. في الوهلةِ الأولى عندما رأى الفلبينيةَ عاجزةً وحائرةً رأى فيها عجزَهُ وحيرتَه، فسارعَ كي يُنقذَها، لكنَّهُ وقعَ فريسةَ عجزِهِ مرَّةً أخرى وراحَ يطلبُ منها المساعدة. إنَّنا أمامَ صورةٍ نفسيةٍ للتابعِ المشقَّق، الذي تسكنُهُ روحُ التبعيةِ والحيرةِ والعجز؛ فيكرهُ أن يرى في الآخرينَ نفسَه، لقد التقطَتها عينُهُ لأنَّهُ ظنَّ نفسَهُ الأقوى، لكن سرعانَ ما تتكشَّفُ الحقيقةُ ويغيبُ وعيُه، فيسقطُ مرَّةً أخرى في فخِّ التبعية.

---

[36](Lacan, 2006a, p. 76)
[37](الحارثي، 2023، ص. 170)
[38](الحارثي، 2023، ص. 171)

"فَرِحَت كثيراً لأنَّها وجدَت أخيرًا من يُحدِّثُها بالإنجليزية، اتَّفقنا على أن أُسلِّفَها أجرةَ التنقُّلِ حتى نصلَ البنسيونَ وأن نستخدمَ معًا دليلَها السياحيَّ في العثورِ على بنسيون".[39] يلتقي التابعانِ كي يعقدا تحالفًا بينَ عاجزَين، يبحثُ كلٌّ منهُما عن دعمٍ وعن تواصلٍ لغوي، وكأنَّهُما يُريدانِ أن يُؤكِّدا مقولةَ سبيفاك "هل يتكلَّمُ التابع؟!" فكلاهُما ناقصٌ يبحثُ عن تكاملٍ يجمعُ الناقصَين؛ فَرَحُ الفلبينيةِ لم يكن فرحاً بالمساعدةِ المالية، إنَّما فرحٌ بوجودِ من يتحدَّثُ معها ومن يُمكِنُها أن تتحدَّثَ إليه؛ فأكبرُ أزماتِ التابعِ عدمُ قدرتِهِ على الكشفِ عن هويَّتِهِ والتعبيرِ عن وجوده. لم يكن اللقاءُ عمليةَ إنقاذٍ نفسيٍّ أو مالي، بل وجدَ كلٌّ منهُما من يسمعُه؛ وهذا في زمنِ الاستلابِ الغايةُ الأهمُّ والنعمةُ الوحيدةُ المتاحةُ للتابعِ المشقَّق.

"أووه.. إنَّ الوجوهَ تفضحُ أحياناً، صحيحٌ أصلي من الفلبين لكنَّني عشتُ منذُ طفولتي في الولاياتِ المتَّحدةِ وطني الذي أُحبُّه، لكن هذه الفلبين تُطاردُني أينَ ذهبت، أنا لا أُحبُّها، ولا أُحِبُّ هذا الوجه".[40] في إسبانيا الأرضِ صاحبةِ الهوياتِ المتنازَعةِ يتلاقى الرحَّالةُ بالفلبينية، وكلاهُما تتنازعُ بداخلِهِ الهويَّات، وكلاهُما يحملانِ ملامحَ وجهٍ وجسدٍ وجوازِ سفرٍ يُخبِرُ بهويَّتِهِما؛ لذلك نجدُهُما يعزفانِ عن التفكيرِ في الملامحِ والجسد. فالرحَّالةُ تابعٌ مُشقَّقٌ مُتذبذب، يخضعُ لرؤيةِ الآخرِ له؛ لو أثنى عليه أحدٌ أحبَّ هويَّتَه، ولو شعرَ بقدحٍ فيها أو تهديدٍ كَرِهَها وانتقدَها. لكنَّ الفلبينيةَ حاسمةٌ في الأمر؛ فهي تكرهُ هويَّتَها ملامحَ وجهِها وجسدِها، وتُصرِّحُ بذلك: "أنا لا أُحبُّها، ولا أُحِبُّ هذا الوجه"؛ إنَّها لا تكرهُ نظرةَ الآخرينَ أو رؤيتَهم لها، بل تكرهُ هويَّتَها وذاتَها ووطنَها الأصلي؛ إنَّها تماهَت مع المستعمِرِ كما يقولُ فانون،[41] وأمسَت لا ترى إلا هويَّتَهُ ونظرتَهُ للآخر.

"بدا لي بعدَ اعترافِ التعارفِ أنَّ إقامتَها الطويلةَ في الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيةِ لم تمسُخها فقط، إنَّما أنسَتها نُبلَ الشرقِ وسماحتَه".[42] أمعنَ الرحَّالةُ التفكيرَ في شخصيةِ السيدةِ الفلبينيةِ وحديثِها وكراهيتِها لأصلِها؛ فكَرِهَ فيها هذه التبعية، وتذكَّرَ نفسَه، فسارعَ بإصدارِ حكمِهِ عليها. وفي هذا الحكمِ يبدو مُتناقضًا؛ لأنَّهُ مثلُها تماماً، وهي مرآةٌ عاكسةٌ لرؤيتِهِ لنفسِه؛ وهنا تتجلَّى بجلاءٍ ما أسماهُ لاكانُ بالعدوانيةِ تجاهَ "الشبيه" (semblable)[43]، تلك العدوانيةُ التي تنشأُ حينَ يُهدِّدُ الآخرُ المشابهُ وحدةَ الأنا الهشَّةَ المتخيَّلة، فيُصبحُ الشبيهُ في اللحظةِ ذاتِها مرآةً ومصدرَ خطر. فالرجلُ الذي نامَ نومَ الثورِ الجريح، وقَبِلَ دعوةَ روبرتو وقال "لِمَ لا؟"، واحتجَّ بتأشيراتِ الغربِ ليُثبتَ هويَّتَهُ وإنسانيَّتَه، تذكَّرَ فجأةً نُبلَ الشرقِ بثقةٍ كأنَّهُ لم يهرُب منه يومًا. لم يأتِ اعتزازُهُ من قوَّةٍ داخلية، بل جاءَ لأنَّهُ وجدَ أمامَهُ من جُرحُهُ أعمقُ من جرحِه؛ فاعتزَّ بجرحِهِ لأنَّ جرحَ الآخرِ أكبر. كلاهُما ممسوخ، لكنَّ الرحَّالةَ لا يرى مسخَهُ لأنَّهُ مشغولٌ برؤيةِ مسخِها؛ والتابعُ المشقَّقُ لا يُحطِّمُ مرآتَهُ حينَ يرى فيها ما يكره، ولا يُحاولُ إصلاحَها وإصلاحَ ما يكره، بل يُلقي بها على من أمامَه.

---

[39] (الحارثي، 2023، ص. 171)
[40] (الحارثي، 2023، ص. 171)
[41] (فانون، د.ت، ص. 45)
[42] (الحارثي، 2023، ص. 171)
[43] (Lacan, 2006b)

"لم تلتقط من الثقافةِ الأمريكيةِ الرصينةِ سوى مباهاةِ القطيعِ في انقيادِها الأعمى لما هو مكتوبٌ في الدليلِ السياحي، دونَ أن تُعطيَ حسَّها الإنسانيَّ فرصةَ التفكيرِ والتوجيهِ الذاتي، لولا أنَّني ساعدتُها في الوصولِ إلى ذلك البنسيون".[44] يُواصلُ التابعُ المشقَّقُ تناقضَه؛ فهو يُؤكِّدُ غيابَ عقلِ الفلبينيةِ التي لم تأخُذ من أمريكا حضارتَها وعقلَها وقوَّتَها، وأخذَت فقط فكرةَ الانقيادِ لكلِّ ما هو آليٌّ ومُبرمَجٌ دونَ وعيٍ أو إعمالِ عقل. إنَّنا أمامَ حكمٍ مُزدوجٍ على السيدة؛ فهو يُنكرُ عليها تخلِّيَها عن الشرقِ وانقيادَها لحضارةِ الغرب، في حينِ أنَّهُ لم يُنكِر على نفسِهِ من قبلُ عدمَ معرفتِهِ بالمدينةِ أو الفنادقِ أو اللغة، بل إنَّهُ لم يُنكِر على نفسِهِ انقيادَهُ للدليلِ السياحيِّ واستخدامَهُ للوصولِ إلى منطقةِ البنسيون، ويكتفي فقط بتأكيدِ أفضليَّتِه، وكأنَّهُ تذكَّرَ حالاً أنَّهُ شرقيٌّ وأنَّهُ يمتلكُ الحسَّ الإنسانيَّ الذي لا يتوفَّرُ عندَ الغربِ الذي كانَ يستجدي رضاهُ من قبل.

"في الصباحِ التالي أردتُ أن نتصاحبَ في زيارةِ المهمِّ من المعالمِ الأثريةِ والمفاتنِ السياحية، لكنَّني آثرتُ الافتراقَ عن سائحةٍ يقودُها دليلٌ مكتوبٌ لا تعرفُ حتى استخدامَ الخرائطِ التوضيحيةِ التي به، لا لقصورٍ في الدليل، بل لمنطقِ تفكيرِها المؤمرَك... لذلك انفردتُ بسحرِ الأصفارِ الثلاثة، تاركاً لها الرقمَ السابع، (الذي يفقدُ بالضرورةِ أمامَ الصفرِ أيَّ هالةٍ سحريةٍ له!!)". لقد سَعِدَ بافتراقِهِ عنها؛ لكنَّهُ لا يكشفُ عن الفراقِ لتأكيدِه، إنَّما كي يُبرِّرَ موقفَهُ ويحكيَ عن سببِ الفراق: "تفكيرُها المؤمرَك" هو السبب، تفكيرُها الذي دفعَهُ لتركِها حِفاظاً على تفكيرِهِ وهويَّتِهِ وذاتِه. وقبلَ أن يرحلَ يُؤكِّدُ تفوُّقَهُ بحسبةٍ رياضية؛ فهو يأخذُ الأصفارَ الثلاثةَ أي الصفرَ والعدمَ واللاشيءَ ويُسمِّيها "سحرًا"، ويتركُ لها الرقمَ السابعَ وهو في كلِّ الثقافاتِ رقمُ الحظِّ والكمالِ والبركة، بل إنَّهُ في الثقافةِ العربيةِ رقمٌ مُقدَّسٌ يكتسبُ أبعادًا دينيةً واضحةً في الموروثِ الإسلامي، ويقولُ إنَّهُ يفقدُ هالتَهُ أمامَ الصفر؛ إنَّهُ تناقضُ التابعِ المشقَّقِ في أجلى صورِه.

إنَّ التابعَ المشقَّقَ يُجيدُ الهروب: الهروبَ من ثقافتِهِ التي يُنكرُها إذا أنكرَها الغربي، والهروبَ ممَّن يُشبِهُهُ في غيابِهِ وتشقُّقِه، والهروبَ من المرآةِ العاكسةِ الكاشفةِ التي تكشفُ حيرتَهُ وتناقضَه. وفي هذا الهروبِ المتواصلِ تتجلَّى أعمقُ صورِ الاستلاب؛ فالتابعُ المشقَّقُ لا يُعاني من الآخرِ فحسب، بل يُعاني من نفسِهِ التي باتَت أشدَّ غموضًا وتناقضًا من كلِّ الصورِ التي يُحاولُ الهروبَ منها؛ فالمرآةُ العاكسةُ في نهايةِ المطافِ ليسَت الآخرَ المشابِهَ له، بل هي ذاتُهُ التي يهربُ منها ولا يستطيعُ الإفلاتَ من أسرِها، لتُغلقَ بذلك دائرةُ الاستلابِ في أكملِ تجلِّياتِها وأعمقِها: استلابٌ من الخارجِ يُنتجُ استلابًا من الداخل، مُصادِقًا بذلك ما ذهبَ إليه لاكانُ من أنَّ الاغترابَ لا يطرأُ على الأنا طارئاً، بل يُؤسِّسُها منذُ لحظةِ تشكُّلِها الأولى أمامَ المرآة [45]، ومرآةٌ عاكسةٌ لا يستطيعُ التابعُ أن يكسرَها لأنَّها في نهايةِ المطافِ مرآتُهُ هو.

8

الانتصارُ المُستلَب

(حينَ يهربُ التابعُ المُشقَّقُ نحوَ عالَمٍ جديدٍ من هويَّةٍ لم يستطع احتمالَها)

---

[44] (الحارثي، 2023، ص. 171-172)

[45] (Lacan, 2006a)

يعودُ هذا المبحثُ إلى مفهومِ "التابعِ المنتصر" الذي رصدَهُ البحثُ في مباحثِهِ السابقة، غيرَ أنَّهُ يكشفُ هنا عن وجهٍ جديدٍ وأعمق؛ إذ لا يكتفي التابعُ المستلَبُ بتشويهِ ما ورثَه، بل يمتدُّ استلابُهُ ليطالَ انتصاراتِهِ ذاتَها فيسرقُها من أصحابِها أو يُذيبُها في هوياتٍ أكبرَ منه. وهذا ما يُمكنُ تسميتُهُ "الانتصارَ المستلَب"، ويُشيرُ إلى تلك الحالةِ التي يعجزُ فيها المنتصرُ عن الاحتفاظِ بانتصارِهِ أو نسبتِهِ إلى هويَّتِهِ الخاصَّة؛ فيغدو الانتصارُ ذاتُهُ أداةً جديدةً للاستلاب، يُضافُ إلى سلسلةِ الاستلاباتِ التي رصدَها البحثُ على امتدادِ مباحثِه. وهذه الصورةُ هي الامتدادُ الأعمقُ والأشمَلُ لما سبقَ رصدُهُ من صورِ التشويهِ والطمسِ والاضطرابِ والتشقُّق؛ غيرَ أنَّها هنا تتجاوزُ حدودَ الفردِ لتطالَ التاريخَ بأسرِه.

"اعتبرَ النصرَ الثانيَ الذي حقَّقَهُ كولومبسُ بعدَ ذلك بعدَّةِ سنواتٍ في اكتشافِ العالَمِ الجديدِ نصراً أوروبيًّاً لا إسبانيًّاً فقط، ودوافعُ هذا الكشفِ بالأساسِ كانَت في صُلبِ البحرِ الأبيضِ المتوسّطِ الذي كانَ بُحيرةً تُركية؛ إذ كانَ الأتراكُ يتحرَّكون بدوافعَ دينيةٍ مُشابِهةٍ في نفسِ هذه الفترةِ نحوَ الغرب، ويدُقُّون أبوابَ النمسا".[46]

أتمَّت إسبانيا حروبَ "الاسترداد" عامَ 1492، وطردَت العربَ واليهودَ في العامِ ذاتِه، لكنَّها لم تتوقَّف لتبنيَ هويَّتَها المستقلَّة الراسخة؛ بل انطلقَت فورًا نحوَ العالَمِ الجديد، هاربةً من ثِقَلِ هويَّتِها الأندلسيةِ المركَّبةِ إلى مغامرةٍ كونيةٍ لا تملكُ مقوّماتِها. لكنَّ الحارثيَّ يُلاحظُ ما هو أعمقُ من مجرَّدِ التوسُّعِ الجغرافي؛ إنَّ النصرَ الإسبانيَّ لم يكن إسبانيًّاً بل أوروبيًّاً في جوهرِه؛ فقد انتصرَت إسبانيا لغيرِها كي ينجوَ الأوروبيونَ من القوَّةِ العُثمانيةِ المهيمِنةِ على البحرِ الأبيضِ المتوسّط؛ فقد فشلَ المنتصرُ في الاحتفاظِ بانتصارِهِ لنفسِه، فراحَ يبحثُ عن طريقٍ جديدٍ للنجاةِ من خصمِهِ الشَّرِس، مُحوِّلاً انتصارَهُ المحلّيَّ إلى خدمةٍ لمشروعٍ أوروبيٍّ أكبرَ منه.

وهذا هو جوهرُ الاستلابِ في لحظةِ الانتصار: المنتصرُ الذي لا يملكُ هويَّةً مُستقلَّةً راسخةً لا يستطيعُ أن يحتفظَ بانتصارِهِ لنفسِه؛ فيُذابُ في هويَّةٍ أكبرَ منه، ويُصبحُ انتصارُهُ خدمةً لغيرِه لا إضافةً لذاتِه. إسبانيا التي كانَت تهربُ من هويَّتِها الأندلسيةِ المركَّبةِ وقعَت في هويَّةٍ أوروبيةٍ لا تخصُّها أكثرَ مما كانَت تخصُّها الهويَّةُ التي هربَت منها؛ وهكذا يتَّضحُ أنَّ الهروبَ من الهويَّةِ لا يُنتجُ هويَّةً جديدة، بل يُنتجُ استلابًا مُضاعَفًا؛ استلابٌ من الداخلِ بالهروبِ من الذات، واستلابٌ من الخارجِ بالذوبانِ في هويَّةِ الآخر. وفي هذا تجلٍّ واضحٌ لما رصدَهُ البحثُ من قبلُ في مفهومِ "التابعِ المنتصر"؛ فالانتصارُ الذي لا تسندُهُ هويَّةٌ راسخةٌ لا يلبثُ أن يتحوَّلَ إلى استلابٍ جديدٍ يُضافُ إلى ما سبقَه.

"شعرَ فرديناندُ وإيزابيلا بضآلةِ انتصارِهما على الأندلسِ أمامَ الغربِ كلِّه، إزاءَ اكتشافِ كولومبسَ للعالَمِ الجديد؛ لذلك لفَّقوا له التهمةَ الرائجةَ تهمةَ الهرطقة، وأقالوهُ من منصبِ الأدميراليةِ الإسبانية، وعيَّنوا

[46] (الحارثي، 2023، ص. 163)

بدلاً منه حاكماً إسبانيًّاً على العالَمِ الجديد، وهو مجرَّدُ موظَّفٍ تابعٍ له، هو فيسبوتشي الذي نسبوا له افتتاحَ العالَمِ الجديدِ كجزءٍ من الـ LA".([47])

نحنُ هنا أمامَ صورةِ استلابِ الإنجازِ في أبشعِ تجلّياتِها؛ فقد اكتشفَ الإسبانُ أنَّ الانتصارَ لم يكن لهم وحدَهم، فسُلِبَ منهم، فسلبوا هم الكشفَ من صاحبِهِ الحقيقي؛ لقد مارسَ المنتصرُ المستلَبُ سلطةَ سرقةِ التاريخِ ونسبَتِهِ لنفسِه؛ فسرقوا الإنجازَ ونسبوهُ لفيسبوتشي بعدَ أن أقالوا كولومبسَ بتهمةِ الهرطقة، وهي الآليةُ ذاتُها التي شوَّهوا بها الأندلسَ وتراثَها العربيَّ من قبل. وكأنَّ التشويهَ والسرقةَ هُما الأداتانِ الوحيدتانِ المتاحتانِ للمُستلَبِ كي يُثبتَ وجودَهُ في التاريخ؛ فهو لا يستطيعُ أن يبنيَ مجدَهُ الخاصَّ فيسطو على مجدِ غيرِه، ولا يستطيعُ أن يُنتجَ إنجازَهُ الخاصَّ فينسبُ إنجازَ غيرِهِ لنفسِه. وفي هذا النمطِ المتكرّرِ كشفٌ عميقٌ عن بنيةِ الاستلابِ الداخليِّ للمنتصر؛ إذ يتحوَّلُ الاستلابُ من حالةٍ طارئةٍ إلى نمطٍ راسخٍ في التفكيرِ والفعل.

في النهايةِ تكتملُ الصورةُ الكُبرى لرؤيةِ هذه الدراسة: المنتصرُ القشتاليُّ الذي شوَّهَ الحمراءَ خوفًا من ذاكرةِ المهزوم، وضيَّقَ مدخلَ القصرِ لأنَّهُ لم يستطع بناءَ مثلِه، ونسبَ البناءَ إلى الجنّ هربًا من الاعترافِ بعبقريةِ أجدادِه، هو نفسُهُ الذي نسبَ اكتشافَ العالَمِ الجديدِ لموظَّفٍ تابعٍ لأنَّ المكتشفَ الحقيقيَّ كانَ أكبرَ منه وأجدرَ بالمجد. هذا المنتصرُ لم يكن مالِكًا لانتصارِه؛ كانَ تابعاً مُشقَّقًا يُعرّفُ نفسَهُ بما يتمنَّاهُ لا بما يملكُه، ويسرقُ العظمةَ لأنَّهُ عاجزٌ عن إنتاجِها، ويُدينُ المنجِزينَ لأنَّ إنجازَهم يفضحُ عجزَه. وهكذا يتَّضحُ في ختامِ هذا المبحثِ أنَّ الاستلابَ ليسَ حِكرًا على المهزوم؛ بل هو مصيرُ كلِّ هويَّةٍ مُضطربةٍ لا تملكُ مرجعيَّةً داخليةً راسخة؛ سواءٌ أكانَت هويَّةَ المهزومِ الباحثِ عن ماضٍ ضائع، أم هويَّةَ المنتصرِ الهاربِ من حاضرٍ لا يستطيعُ احتمالَه؛ وفي كلتا الحالتَين تبقى دائرةُ الاستلابِ مُغلَقةً لا تنفتحُ إلا بالمواجهةِ الصادقةِ مع الذاتِ والتاريخ، وهو ما عجزَ عنه التابعُ المنتصرُ والمهزومُ معاً على امتدادِ هذه الرحلة.

الخاتمة

انطلقَ هذا البحثُ من سؤالٍ جوهريٍّ تطرحُهُ رحلةُ الحارثي إلى الأندلس: كيفَ تتشكَّلُ صورةُ الهويةِ المستلَبةِ في الكتابةِ الرحليةِ العُمانية، وما الأنماطُ التي يتَّخذُها هذا الاستلابُ في مواجهةِ الآخرِ الغربيّ وفي مواجهةِ الذاتِ العربيةِ معاً؟ وقد كشفَ البحثُ على امتدادِ مباحثِهِ الثمانيةِ أنَّ الاستلابَ ليسَ حادثةً طارئةً أو موقفاً عابراً، بل بنيةٌ عميقةٌ مُتجذّرةٌ تتشعَّبُ في كلِّ مستوياتِ الهويَّة: الفرديّ والجمعي، والتاريخيّ والراهن، والمادّيّ والرمزي.

تدرَّجَ البحثُ من الاستلابِ الخارجيّ المباشرِ، حيثُ لا تُرى الهويةُ المستلَبةُ ولا تُسمَع، إلى أثرِهِ النفسيّ العميقِ الذي يطالُ المهزومَ والمنتصرَ معاً؛ فكشفَ أنَّ المنتصرَ ذاتَهُ قد يقعُ في فخِّ الاستلابِ حينَ يعجزُ عن الانتماءِ لما ورثَه، وأنَّ الرأسماليةَ حوَّلت البهجةَ الأندلسيةَ الأصيلةَ إلى بضاعة، وأنَّ الخرافةَ قد تغدو بنيةً ذهنيةً راسخةً لتبريرِ العجزِ بدلاً من مواجهتِه. وبلغَ التشخيصُ ذروتَهُ في ظاهرتَي "التابعِ المشقَّق" و"المرآةِ العاكسة"؛ إذ يتأرجحُ التابعُ بينَ النقمةِ على هويَّتِهِ والاعتزازِ بها تبعاً لموقفِ الآخر، ويرفضُ أن يرى صورتَهُ

[47](الحارثي، 2023، ص. 164)

حينَ تنعكسُ في مرآةِ من يُشبِهُه، فيُلقي باستلابِهِ على غيرِه. وختمَ البحثُ بكشفِ "الانتصارِ المستلَب"، حيثُ يسرقُ التابعُ إنجازاتِ غيرِهِ لعجزِهِ عن إنتاجِ إنجازاتِهِ الخاصَّة، مُؤَكِّداً أنَّ الانتصارَ الذي لا تسندُهُ هويَّةٌ راسخةٌ لا يلبثُ أن يتحوَّلَ إلى استلابٍ جديد.

وفي ضوءِ ما سبق، تتَّضحُ نتائجُ البحثِ في أنَّ صورةَ الأندلسِ في الرحلةِ العُمانيةِ لم تكن صورةً تاريخيةً بحتة، بل مرآةً كاشفةً لصراعِ الهويةِ المستلَبةِ في راهنِها الإنساني؛ وأنَّ الاستلابَ بنيةٌ مُتشعِّبةٌ تعملُ على مستوياتٍ متشابكةٍ لا يمكنُ فهمُها من خلالِ مستوىً واحد؛ وأنَّ المهزومَ والمنتصرَ كلَيهِما ضحيَّةُ الاستلابِ وإن اختلفَ مصدرُه؛ وأنَّ النوستالجيا والخرافةَ والتشويهَ وسرقةَ التاريخِ آلياتٌ دفاعيةٌ تُعمِّقُ الاستلابَ ولا تُعالجُه؛ وأنَّ الرحلةَ الأدبيةَ قادرةٌ على رصدِ صراعِ الهوياتِ بعمقٍ استثنائي، لأنَّها تضعُ الذاتَ في مواجهةٍ مباشرةٍ مع الآخرِ والتاريخِ والمكان.

ويبقى السؤالُ معلَّقاً: هل يستطيعُ التابعُ المشقَّقُ أن يتجاوزَ استلابَه؟ والجوابُ الذي تُقدِّمُهُ رحلةُ الحارثي لا يُبشِّرُ باليقينِ لكنَّهُ لا يستسلمُ لليأس؛ فما دامَ الرحَّالةُ يكتبُ ويرصدُ ويتأمَّل، فإنَّ بذرةَ الوعيِ لم تمُت، والوعيُ هو الخطوةُ الأولى في طريقِ التحرُّرِ من الاستلاب.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية

الحارثي، محمد بن سيف. (2023). عين وجناح (ط. 3). دار نثر.

سبيفاك، غاياتري. (2022). هل يستطيع التابع أن يتكلم؟ (خالد حافظي، مترجم). صفحة للنشر والتوزيع. (العمل الأصلي نُشر عام 1988)

سعيد، إدوارد. (2006). الاستشراق (محمد عناني، مترجم؛ ط. 3). دار رؤية. (العمل الأصلي نُشر عام 1978)

غالا، أنطونيو. (1998). المخطوط القرمزي: يوميات أبي عبد الله الصغير آخر ملوك الأندلس (رفعت عطفة، مترجم؛ ط. 2). دار وردة للطباعة والنشر. (العمل الأصلي نُشر عام 1990)

غبسون، نايجل سي. (2013). فانون: المخيلة بعد الكولونيالية (خالد عايد أبو هديب، مترجم؛ ط. 1). المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

فانون، فرانتز. (د.ت). معذبو الأرض (سامي الدروبي وجمال الأتاسي، مترجمان). دار القلم. (العمل الأصلي نُشر عام 1961)

ثانياً: المراجع الأجنبية

Lacan, J. (2006a). The mirror stage as formative of the function of the I as revealed in psychoanalytic experience. In Écrits: The first complete edition in English (B. Fink, Trans., pp. 75–81). W. W. Norton. (Original work published 1949)

Lacan, J. (2006b). Aggressiveness in psychoanalysis. In Écrits: The first complete edition in English (B. Fink, Trans., pp. 82–101). W. W. Norton. (Original work published 1948)